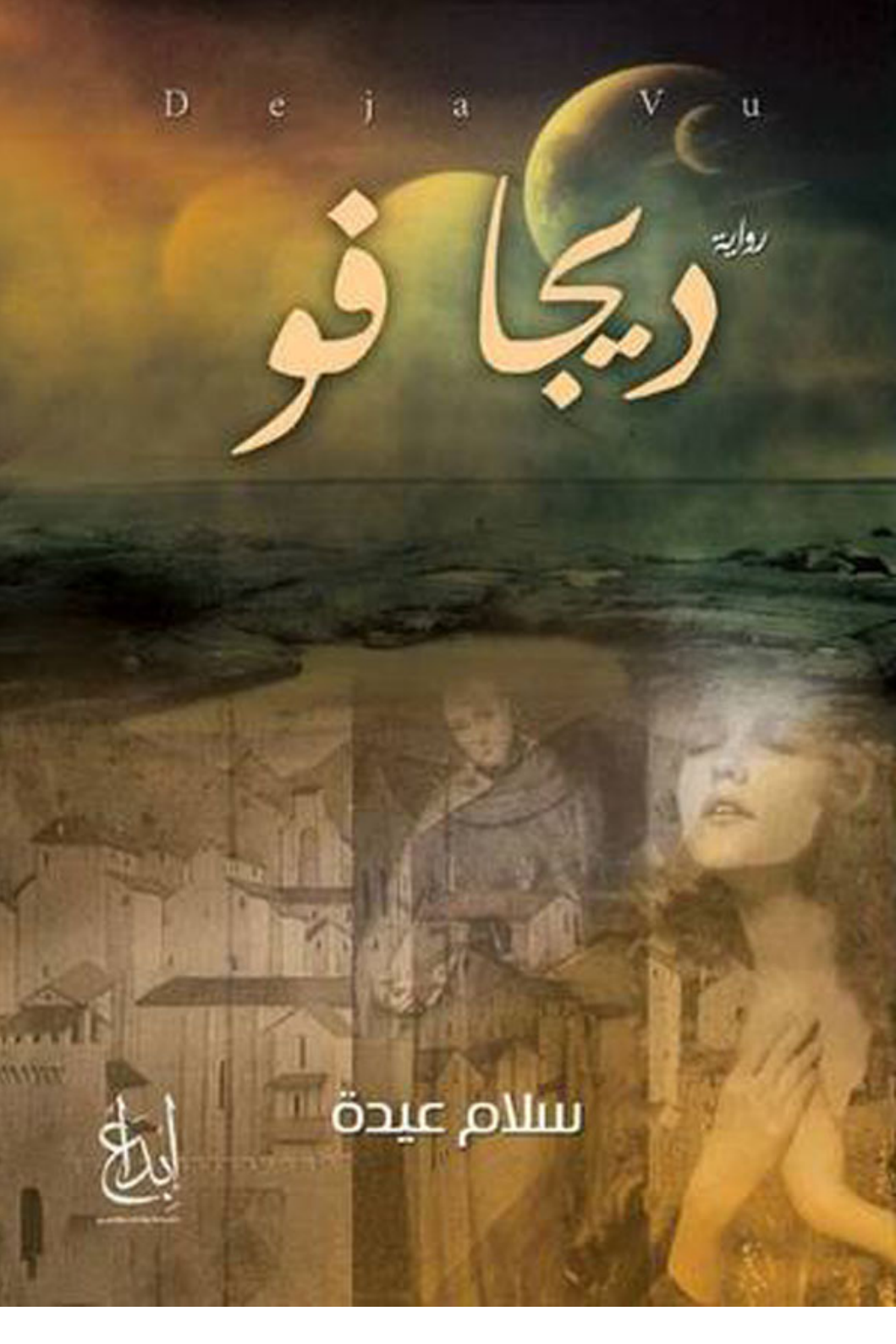
D e j a V u
رواية
ديجا فو
سلام عيدة
إبداع

الكتـــــــــاب: ديجا فو
المـــؤلـــــف: سلام عيدة
الغـــــــــلاف: أ/ إيمان صلاح
رقـــم الإيـــداع: 13714 / 2014
الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 6447 - 78 - 3
الإخـراج الفنـــي: أ/ حسين الحماقي - ت/ 01006674335

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة
هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403
الموقع الإلكتروني: www.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

ديجـــا فـــو

Déjà vu

«فانتازيا دينية»

سلام عيدة

تنبيه هام جدًا

الآراء الواردة في الرواية هي حقوق ملكية خاصة بالمؤلف دون غيره
وليست بالضرورة تعبر عن رأي الدار

عزيزي القارئ:

ديجَافو تطرح أفكارًا مجنونةً وجديدةً،
لو مستعد تناقش بالمنطق ولديك خيالٌ خصبٌ، اقرأ هذه الرواية
لكن لو مش مستعد.....
سيب الرواية في مكانها وامشي...
وقد أعذر من أنذر.

الإهـــداء

إلى كلِّ الحائرينَ حينَ يَتساءلونَ «لماذا؟»

إلى كلِّ المُعَذَّبين بين السُّخطِ والرِّضا بما تجري به الحياة.

إلى كلِّ مَن تَلمَّظَ ببقايا مرارةِ السُّؤال الوُجودي «آلإنسانُ مُسيَّرٌ أم مُخيَّرٌ»

أُهدي هذه الرواية الاجتهادية والرؤية التّأمُّليّة.

****

و«أنت»؟!

يا مَنْ سمّيْتُكَ «أنا»

ماذا سأكتبُ عنك؟ وقد تفوّقتَ حتى على خيالي.

في اللحظة التي أردتُ فيها وَأْدَ حُروفي، أمسكتَ بيدي وَوَأَدْتَ خَوْفي.

في الوقت الذي سالتْ فيه المرايا وتشوّهت الرّؤية، أضأتَ طريقي وقلت لي: تعالي.

لو لم تكن كاملاً!!

لو لم أكن أنا وتكون أنت!!!
لما وَقع الكَمانُ على عزفِ الأُغنيات
ولما داعبَ النّايُ حُزنَ الأُمسيات
لوْ لمْ تَكُنْ...
لاخترعْتُكَ في خيالي
ولأحبَبْتُ طَيْفَكَ، واكتَفَيْتُ
ذاتَ حلمٍ، بكيتُ لأنّي احتجْتُ أنْ أُعانقَكَ أكثر
ذاتَ حلمٍ،
كان اسمكُ آخرَ ما همسَ اللهُ به لقلبي
وبارَكَ حُبّنا معًا
أُهديكَ حُروفي، ومَعْ كلِّ حرفٍ نَبضةُ حُبٍّ.

****

وإلى صديقي الحَميمِ "الشّتاء"، أَدينُ لكَ بالكثير.

مقدمـــة

كتب صديقي الفيسبوكي Rahim Epic يقول:

"الخطأُ الأولُ..... صُدفة

الثاني... اختيار

الثالث... فضول

الرابع... عادة

الخامس..... حياة

أطالبُ الله بخمس حَيَوات... حتى أشعرَ بالحياة!!!"

وَوَجَدْتُني في خِضَمِّ تسطيري لروايتي هذه أنفَتَحُ دهشةً على كلماتِه، هذا عقلٌ يفكرُ فيما أفكرُ فيه، سَتروقُ له روايتي.

وكتبتُ تعليقي السّريعَ له:

" حَقّك!"

ولا أدري هل كتبتُ هذه الكلمةَ، انتصارًا لفكرتي التي احتوَتها الرواية، أم إعجابًا بنفسي إذْ سبقْتُه إلى تلك الفكرة!

لكنّني استأذنتُه في تضمين كلامِه هنا، كشاهدٍ على حيرة الأسئلة.

وبالمقابل، كان صديقٌ فيسبوكيٌّ آخرُ يقرِّرُ متسائلاً حائرًا:

"مساحاتُ الدّين أضيقُ مِن أنْ تستوعبَ أسئلةَ العقل."

ثُمّ يطرحُ مجموعةً مِن هذه الأسئلة:

" مِن أسئلة العقل... مِن أين جئتُ أنا.... لماذا خلقني دونَ أن يُخيِّرني في خلقي... لماذا وكيف وأين ومتى وهل... وبقية أَعلام الأسئلة التي لا تنتهي."

فكّرتُ في كلامه فقلت لنفسي:

"هذا التّعارضُ الظّاهريّ، بين العقلِ والدّين، سببُه أمران:

التّشددُ الدّينيّ عند بعضِهم، وخوفُهم من التفكير، فكلُّ سؤالٍ لا يجدون له جوابًا يصبح محرمًا، فأسهلُ طريقةٍ لإخفاء قُصورِهم هو تحريم الأسئلة.

والسببُ الثاني: العلاقةُ السيّئةُ مع الله؛ حيثُ يصوِّرونه على أنّه رجلٌ علويٌّ ساديٌّ يكرَه لنا الفهم، ويغضبُ إنْ فكّرنا، ولكنّ الحقيقةَ أنّه مُتفهّمٌ مُتسامحٌ صبورٌ حليمٌ، يتقبّل أسئلتَنا بل ويساعدُنا في إيجادِ

الإجابات لو صَدَقْنا النيّة في السؤال، والدليلُ، هذه الرواية.»
كانت أنانيّتي المُفرطة تَتَماهى ساعتها بغُرورٍ جَذِلٍ كالأطفال وأنا أعلنُ له أنّي وجدتُ الإجابات، وكان ضميري المزعجُ يؤنّبُني أنّني تركتُه في حيرةٍ، دونما جوابٍ، حتى أحافظَ على سِريّة الرواية، وكأنّني أُتاجر بوجعه لصالح دعايةٍ جيّدةٍ لروايتي!
لكنّ عزائي، أنّني لو استطعت شرحَ أفكاري وطرحَ إجاباتي سريعًا في جلسةٍ أو جلستين على «الفيسبوك» أو نوافذه الصغيرة لما أتعبتُ نفسي بتضمين فكرتي على شكلِ روايةٍ لأقول ما عندي دفعةً واحدةً مطولةً!
فعُذرًا أصدقائي.

الفصل الأول
"القِدّيسَةُ"

«كلُّ ما يستطيعُ العقلُ البَشريُّ تَخيُّلهُ أو إبداعَهُ، إمّا أنْ يكونَ قَدْ وَقَعَ، أو كادَ يَقَعُ في حياةٍ أُخرى سابقةٍ، القضيَّةُ ليستْ أكثرَ مِنْ بقايا ذاكرةٍ حسَّاسةٍ وفُؤادٍ ذَكيٍّ»

«كوكبُ فينوس، مرتفعُ عِشتار[1]»:

كان ياما كان، ولا شيءَ يبقى مِثلما كان...
في حياةٍ أُخرى سابقةٍ، بعدَ رحيلِ آخرِ الأنبياء بسنواتٍ قليلةٍ...
مهلاً!

(١) هو كوكب الزهرة، ومرتفع عشتار هو اسم القارة الشمالية من الكوكب، وهو بحجم استراليا تقريبًا.

حينَ أقولُ «في حياةٍ أخرى سابقةٍ»، فأنا أعني ما أقوله حرفيًّا، بيقينٍ تامٍّ أنّني أَقُصُّ عليكم أغربَ القَصَصِ وأَصدَقها، بما أُوحِيَ إليّ على وجه الخصوص، وإنْ كنتُ قبلَ الوحي لَمِنَ الغافلين، قد تستهْجِنونه، لكنْ، مَن احترق بالكلمات، وأتعَبَه الفِكر، حتى وقع في قلبِه اليقينُ، نبيٌّ أيضًا.

قِصّتي ليست إلّا خيالاً، كانَ في حياةٍ أخرى واقعًا، لم يتجسّدْ إلّا لي، فأحببتُ مشاركةَ القارئ به. كما أنّها قصةٌ لا يحيطُ بها زمانٌ، ولا يَحُدّها مكانٌ، أستطيعُ أنْ أدركَه بما تبقّى لي مِن ذاكرةٍ أوليّةٍ، فصارتْ قصّتي حكايةً شعبيّةً عندي، وخياليّةً عند مَن لا تسعفُهُم أرواحُهم لتَذَكُّرِ ما كان.

إِذَنْ:

في حياةٍ أخرى سابقةٍ، بعد رحيلِ آخرِ الأنبياء بسنواتٍ قليلةٍ، رجلٌ راهبٌ يعيش في بيتٍ طينيٍّ، تعاونَ أهلُ القرية في تجهيزه، لمّا رأوْا من بركاته حين مَرَّ مَرَّةً بهم، إثرَ وباءٍ ألمَّ بهم، فألقى عصاه وقام نشيطًا يساعد في شفائهم، فَبَلَّ قلوبَهم بحُسن صلاته ودعواته، لكنه أُصيب بالوباء، ولم يقمْ منه إلا بعد عشرة أيام قاسيةٍ، فما كان منهم لضيق بيوتهم إلّا أنْ قرّروا بناء بيتٍ له رغبةً في مكافأته، وحُبًّا في بقائه، واختلفوا أين سيكون البيت، لكنّهم استقرّوا أخيرًا على

أنْ يكون في بطنِ الجبل حيثُ أشار بإصبعه حينما أفاق مرةً من غيبوبته وهم يتجادلون، لمْ يَستطع الكلام، بل أشار إلى الأعلى، فظنّوا أنّها الإشارة، لكنّهم حين أخبروه بما جرى في غيبوبته، لم يتذكرْ شيئًا من ذلك، لكنّه ادّعى أنّه يعلم وأنّ الوحيَ ألهَمَه، كان يشعر بحرجٍ بالغٍ من قول الحقيقة، فهم يرونه قِدّيسًا الآن، وكان قاسيًا على نفسه التّملُّص من كلِّ ذلك الفضلِ الذي أحاطوه به، والقصصِ التي نسبوها إليه.

وطابت له القرية بكلِّ ما فيها فبقي فيها، كان الجميعُ يُوقّره، فلا يُعمِّدون صبيًا، ولا يزوِّجون صبيّة، إلا ببركاته، ولا يقوم لهم أمرٌ إلا بعِلمِه.

بالمقابل، كان قليلَ الاختلاط بأحدٍ إلّا إن دَعَت الحاجة، فإذا نزل أنجز مُهمّته سريعًا وهَرْوَل راجعًا مُغلقًا عليه بابَه.

لم يكنْ يحبّ الاختلاط كثيرًا، فقد كان يرى أنّ وقتَه يجبُ أن يقضيَه بالصلاة، شاكرًا أنْ أرسله اللهُ إلى قوم لا يعرفون عن ماضيه شيئًا، ولا يتنقّلون كثيرًا ليسمعوا بعضًا من أخبار ماضيه في مكانٍ آخرَ. كان يخاف أن يكتشفَ أحدٌ أنّه لم يكن راهبًا بدايةً، وأنّه لم يدرس على أيدي رجالِ دينٍ سابقين، وأنّ زِيّه الذي وصل به، كان قد سرقه من آخرَ إثْر لجوئه إلى كنيسةٍ ما.

كان يُحبّ تلك الصورة التي رسموها له، كان يشعر كلَّ مرةٍ يتذكرُ فيها ما حدث أنّه زَنبقةٌ بيضاءُ نبتتْ وسَط الثلج فاغتسلتْ بالبدايات الجديدة، وتشرّبت النّقاء.

بَقِيَ على ذلك الحال سنينَ طويلةً، تقتربُ من العشرين سنةً، يأكلُ ممّا تأكله الطيور، ويشربُ ممّا تجود به السماء.

****

«يا بُنيّ، الشمسُ ستُشرِق، فيحلَّ الليلُ[٢] ولمّا تُحضِر اللحم والملح بعد!»

هكذا قالت الأم لابنها المنشغِل بتنظيفِ جواده الأثير. تجاهلَ كلامها، فاضطُرّت لإعادة الطلب.

بدا عصبيًا وهو يتذمّر من إلحاحها، لكنّها لم تتوقفْ، أسكتها حين أكدَّ أنه سيُكمِلُ تنظيف الجواد ويذهبُ فوق ظهره سريعًا، فهدأتْ ودخلت البيت.

كانت الابنة ذاتُ الستةَ عشرَ ربيعًا جالسةً على صخرةٍ، تستمتع بمشهد الشروق الرومانسيّ قبلَ حلول الليل، متناسيةً حُزنها وبكاءها، نظر إليها أخوها بعصبيةٍ، حاثًّا إياها أنْ تذهب لتساعدَ الأمَّ في تحضير العشاء بدلَ الكسل الذي يستولي عليها!

(٢) في كوكب الزهرة "فينوس" تشرق الشمس من الغرب، وتغيب في الشرق.

قامت وعلى وجهها آثارُ خجلٍ وغضبٍ من وَقْعِ كلامه عليها، كادت تقول له: أنتَ الكسول، لو أنّك قلقٌ على أمّي، إذنْ، اذهبْ لفعل ما طلبَتْه منك منذ ساعة!» لكنها آثَرت الصمت أمام أخيها الكبير، وصادفت أمَّها أمام باب البيت، تكرِّرُ إلحاحها له بالذهاب معلنةً أنّ الأمر لا يتحمل مزيدَ تأخيرٍ.

رأتْ صديقَه يُقْبلُ من بعيدٍ فزاد قلقُها وإلحاحُها، قالتْ له بصوتٍ منخفضٍ لا يصلُ إلى صديقه: «سيُلهيك الآن، ولا يمكنني الانتظار أكثر، الراهب قادمٌ ليُصلّيَ لأجلِ أبيك المريض، وعيبٌ أنْ يذهب دون أنْ نقدّم له طعامَ العشاء، أرجو ألّا تسمح لصديقِك بإلهائك!»

«لا شأن لكِ بصديقي، المهم أن تحصلي على ما تريدين خلال نصفِ ساعة، سوى ذلك هذا شأني وحدي!»

قال لها بعصبية، زادتْ حِدّتُها مع جهده البالغ لإخفاض صوته. ثم نظر إلى أخته المُسمّرة عند الباب تُتَابِع كلَّ ذلك وتنتَقِل بعينيها بين المشهد القريب، واقتراب صديقه البعيد، وقد لمعتْ عيناها من شدّة الانفعال، قال بنفس الصوت الحانق: «ادخلي، أمْ تشعرين بسعادةٍ حين يراك الشباب؟»

خافَتْ أن تعانده فيصرخَ في وجهها، ويُحرجَها أمام القادم. دخلت بسرعةٍ، وقلبُها يخفق بكُلِّ المشاعر المتضاربة فيه، تَبِعَتها الأمّ.

وقفتْ في المطبخ، قريبًا من النافذة تراقبُ الساحة بطرفِ عينها، ويداها تُقشّران البطاطا، حتى جرحَتْ يدها حين رأتهما يبتعدان على ظهر الجواد.

نظرتْ إلى أمّها بقلق، نظرةً خاطفةً. كانت مشغولةً بتجهيز أواني الطّبخ وتحضير الأَرُزِّ الذي سيُقدَّم للضيف.

هَرْوَلت الأم نحو النافذة حين سمعت وقع الحوافر، وعلى عادتها بدأت بتَوَقُّع الشر، وسرْد أسوأ سيناريو للموقف قد يخطر ببالها.

«لقد تَرَكَنا في وسط المَعْمَعة وذهب ليتسلّى مع صديقه بلا أدنى اهتمام، إنّه لا يُعتمد عليه، أبوه مريضٌ وهو لا يبالي، وسيَحضُر الراهبُ ولا شيءَ لدينا نقدِّمه له.» كانت تُوجّه الكلام إلى الحيطان والأثاث، وكأنّها تُحدّث نفسها، وتنقلُ الأوانيَ بعصبيةٍ عابثةٍ.

لمّا لاحظتْ لامبالاةَ الفتاة، وصمتَها المُطبق، وجّهت لها الحديث مباشرة: «هل يُعقلُ أن أَتركَ تحضير الطعام وأذهبَ بنفسي لشراء الأغراض؟ أم هل أترك أباك طريحَ الفِراش وأسعى لعملِ ما يتوجّب على أخيك فعله؟»

كانت الفتاة تشعر بقلقٍ، فعَدوى التوتّر بدأت تنسلُّ تدريجيًّا إلى روحها، كانت تكرهُ القلق، وتحبّ معالجة الأمور بخطواتٍ عمليّةٍ بعيدًا عن أيِّ صَخَب.

دخلتْ الغرفة المجاورة، وخرجتْ مسرعةً، وعلى كتفيْها شالٌ أخذت تُعدِّله على رأسها، وقالت بهدوءٍ: «لا تذهبي أنا سأذهب، أنا أسرعُ منك والدّكان قريبٌ من هنا، ولمّا يَحِلِ الظلام بعدُ»
ناولتها الأمُّ النقودَ بلهفةٍ، وكأنّها تنتظر هذه المبادرة، وتحثُّ عليها بتلميحاتٍ بعيدةٍ، لم يكنْ أحدٌ ليفهمَها لولا أنّ الفتاة تعرف طَبْعَ أمِّها جيدًا.
خرجتْ بصمتٍ، في الطريقِ الهادئِ الجافِّ في هذا الليل الخريفيِّ.
مرَّت ببيوتٍ عدةٍ بدأت تنبعث منها روائح الطعام، وأنوارٌ خافتةٌ، قبل أنْ تصل إلى محلِ بيعِ اللحوم، قرّرت أن تُكمِل طريقها لشراء الملح، فلا داعيَ لِحَمْلِ اللحم ذهابًا و إيابًا.
في طريق عودتها، أخذت نفسًا عميقًا، وهي تنظر إلى الفضاء، كان كوكبُ الأرض يلُوحُ من بعيدٍ، في الحانوت سمعت رجلاً يشير إليه، متسائلاً: «لماذا لا يمكن أن يكون هناك مخلوقاتٌ أخرى تعيش على كوكب الأرض؟ لماذا فينوس فقط هي الكوكب الحيُّ في هذا الكون؟ هل نحن فقط الأحياء في هذا الكون الفسيح؟»
تمنّت لو أنها تترك فينوس وترحل بعيدًا بطريقةٍ ما لتبقى وحدها على كوكب الأرض، يبدو كوكبًا باردًا أزرقَ، لكنه بنظرها رومانسيٌّ وحالمٌ وصامتٌ مثلَها.

داهمَتها أوجاعُ جسدها المضروبِ وقلبِها المحزون. رجفتْ شفتاها، جاهدت دموعها جيدًا، لكنها بعدَ تفكيرٍ قرّرت تحريرها من سجنها، فالعتمةُ والوحدةُ والألمُ أغروها بالبكاء اللذيذ. كان البكاء متعةً لها، ككلِّ مراهقةٍ، كانت تحبُّ تمثيل دور الضحية. وككلِّ إنسانٍ، كان البكاء كنْسًا لقلبها من فُتاتِ الألم.

كانت المُفارقة ساخرةً لدرجةٍ موجعةٍ، ضربها أخوها بمباركةٍ صامتةٍ من المحيطين، للسَّببِ نفسِه الذي أجبروها معه للخروج هذا المساء لإنقاذ الموقف.

البارحةُ مساءً، نفد الدواء من البيت، الأب يتألم جدًا، ولا أحدَ في البيت، لم يبقَ أمامها إلا إحضارُ الأعشاب من عجوزٍ في طرف القرية، استعانت بابن الجيران لخوفها من وحوش الليل، حين عادت وقد تأخرت كان أخوها قد وصل، رآها تمشي مع ذلك الشاب، توجَّس في نفسِه خِيفةً وشرًّا، حدثت مُشادّةٌ كبيرةٌ بينهما، تُدافعُ ويُهاجِم، ويُهاجم وتَصُدُّ هَجَماتِه، لكنّ صوتَه العالي ودفاعَها المحموم ارتطما بحائطٍ، استفزّته، حينما قالت له: «لو كنتَ هنا أو أُمّي لما احتجتُما لخروجي المفاجئ.» استفزّته جدًا وغَلَتْ الدماء في عروقه فانتفض لذكورتِه وضربها، مع قدوم أمهما، التي وقفت بجانبه دونما علمٍ منها بحقيقة الأمر. كان

انتصارًا منها لرَجُل البيت المنتظر، في ظلِّ مرض الأب الدائم، كان الموقفُ أشبَه بلعبةٍ سياسيةٍ تقف فيها المصالح في منتصف الطريق بين الحق والباطل.

واليوم، هذه الليلة، يدفعونها دفعًا لفعل ما ضربوها بسببه البارحة. مشت متثاقلةَ الروح، لا تجد ما تعبّر به عن حنقها وعجزها سوى الدموع.

سمعت وقع أقدامٍ من بعيدٍ، فهُرِعَت إلى البيت.

في الطريق سالتْ دموعها بغزارةٍ، لم تستطع مسحَها بِكُمِّها بسبب انشغال يديها بحِمْلِهما.

لاح لها البيت، أخذتْ نفسًا عميقًا، عدَّلت من وضعية شفاهها الحزينة، وضعت الأغـراض أرضًـا، جففت دموعها جيدًا، واعتمدت على الهواء البارد في إخفاء آثار الانتفاخ والاحمرار في جفونها، وقد تخلَّصت من غِلاف الحزن حولها.

يبدو أنّ الراهب قد وصل، فالمصابيحُ الإضافية مضاءةً، حثَّت الخطى. كان مجيئُه سببًا إضافيًّا لتخنُق غضبَها، وتتناساه، مَادَّةً يدَ العون لأهلها بكرم، أسرَّت في نفسها لنفسها أنّها فعلت ذلك لأجل الرب، ولأجل هذا الراهب الطيب، وليس لأجل أحدٍ آخر، على الأقل، لن يذهب ما تفعله سدًى عند الله، لا بد سيكافئها بسخاءٍ لتحَمُّلِها وصبرِها.

«لِأَكُنْ فتاةً طيبةً مع أمي، وأتسامحْ مع من يخطئ في حقي.» هكذا شجعت نفسها، لتتهيأ للقاءٍ طاهرٍ في حضرة الراهب.

شعرت وهي تدخل البيت أنّها خفيفةٌ كفراشةٍ، شفافةٌ كلؤلؤةٍ، وقد سامحت الجميع حقًا لكلِّ ما فعلوه بها.

لمحت الرّاهبَ يجلس عند رأس أبيها في الغرفة، فانْسَلَّتْ بخفةٍ نحو المطبخ تدندن نشيدًا أشْبَهَ بصلاةِ عابدٍ.

مرّت ساعةٌ تلا فيها الراهب الصلوات، واختلطت رائحة البخور الذي يستدعي الروحَ للسماء، مع روائح الطعام التي تستدعي الأجسادَ للأرض.

دخلت تحمل الطعام لهما، كانت تريد أن تخدمه بأيَّة طريقةٍ.

وضعت الطعام على المائدة القريبة، فعلّق أبوها قائلاً:

– ما رأيك أيُّها الراهب أن أُرسل ابنتي لخدمة الرّبّ؟

رفعت نظرها إليه وقالت بحزم:

«يا أبي، إنّ خدمتك تُعادِل خدمة الرّبّ، فأنت عَطِيَّةُ الرّبّ.»

أُعجِب الراهبُ بجوابها جدًا، فرفع عينيه، ناظرًا إليها.

كانت منهمكةً بتحضير المائدة، وآثارُ ابتسامةٍ وادعةٍ على شفتيها.

ظلّ ينظر إليها طويلاً، محاولاً خلق صورةٍ كاملةٍ لها، ممّا رآه في عينيها وعلى وجهها وسمعه في صوتها.

لكنّ شيئًا ما في داخله يُلِحُّ عليه، جعل الرؤية مشوشةً.
فعَلَّقَ بعد صمتٍ طويلٍ، حينَ استفاقَ وهي تحثُّهما على التَّقدُّم لتناول الطعام. «لِيبارِكْكِ الله يا ابنتي.»
قالت: «آمين» بصوتٍ واضحٍ ولكنه خافتٌ بعض الشيء وانسحبت من الغرفة.
في الليل عَاودَها ذلك الشعورُ المريرُ بالظلم، كان ثقيلاً عليها، رغم إجابتها التي شعرت أنّها راقت للراهب لكنّها أحست بغُصّةٍ، إذ لم يخطر لها أنّ أباها يريد إرسالها إلى الكنيسة إلا ليتخلص من عبءٍ ثقيلٍ، عجزِه عن حمايتها، مصاريفِ الحياة، شعورِه بدنوِّ أجَلِه. كانت قد رفضت مرّةً الزواج وبِشدةٍ حينما حاول أن يقنعها به، قلبُها حيثُ يريد لا حيثُ يريد أبوها.
قامت فصلّت صلاةً طويلةً قالت فيها:
«إلهي، ليس لي من طلباتٍ كثيرةٍ، وأعلمُ أنك عظيمٌ كريمٌ، مهما سألناك ستُعطي المزيد، لكنني راضيةٌ وليس لي سوى أن تَقْبَلَني، وتَهَبَني قلبًا صبورًا على مرض أبي، متسامحًا مع حماقاتِ أخي وتَجاهُل أمي.
يا ربّ: تقبَّلْني كما يتقبَّلون العذراوات، واجعلني في خدمتك وخدمة المساكين.»

ثم نامت.

****

استيقظت مبكرًا، فَزِعةً بعضَ الشيء، كأنّها تنتبه من حُلُم سَكَنَ أُذنيْها، كانت ناعسةَ الطرْف، ضعيفةَ التركيز، مرهقةً، فعطَّلتْ كلَّ حواسِّها، لتُحفِّز أذنيها لِسَمْع أقوى، إنّها أمُّها تُدَمْدمُ بعباراتٍ غاضبةٍ، يقترب الصوتُ ويبتعدُ مع وَقْع الخطوات، إنّها تنظف الأرائكَ بالمِنشفة، وإلّا فما هذا الصوت؟!

تنهّدت بحزنٍ، قامت من فراشها، كانت تعلم يقينًا بحكم التجربة أنّ النوم قد انتحر في عينيها، وأنّ الأمر لن يهدأ حتى تجدَ أمُّها مَنْ يَسمعُ شكواها.

غسلت وجهها، وأسندت جذعها إلى طرف الطاولة، بصمتِ المُذنب كانت تتابع أمها، تحاول بوِقفَتها تلك امتصاصَ بعضِ غضبها. سألَتْها: ماذا هناك؟

كان السؤال كافيًا جدًا، لتُسهِب الأم في الشرح، ناقلةً عدوى الكآبة إلى ابنتها.

«أخوكِ لم يبِتْ الليلة في البيت، وأبوك يريد منه أن يذهب لتفقُّدِ الحقل بعد المطر المبكّر، وأنا لا أستطيع القيام بكلِّ تلك الأمور وحدي، إضافةً إلى أشغال البيت، ورعاية والدك المريض، وزيارة

جدتك وتنظيف بيتها.»

«أنا أزورُ جدتي، لو أحببتِ، وأنظف بيتها.»

«والبيتُ هنا؟ والحقلُ هناك؟»

أخذتْ نفسًا عميقًا سريعًا وآثرت أن تتحصّن بالصمت، لديها الكثير لتقوله، لديها حلولٌ، ولديها نَقْدٌ، ولديها تقييمٌ للموقف، لكنّ عبارةً واحدةً قد تخرجُها عن الحياد الذي تنشده.

سرحت في شيءٍ لو علمته أمُّها لخنقتها غيظًا، كادت تبتسم، فما يشغلها الآن شيءٌ لا علاقةَ له بهموم الوالدة. عندما ذهب أخوها بصحبة صديقه، ماذا فعلا؟ إنه ليس بالتَّقيّ، لكن... لا، صديقُه سوف يمنعُه من أيِّ فعلٍ قبيحٍ. ترى أين ذهبا؟

حاولت ضبط إيقاع صوتها، وسألت أمها ببراءة، «ترى أين سيكون الآن وماذا يفعل؟»

«وهل أدري؟ (ردت بنَزَق) لا بد أنّه وصديقَه قد ذهبا إلى المدينةٍ الكبيرةٍ ليتسكعا معًا.»

هبط قلبُها، كادت تُدافع، احمرَّ وجهُها، لكنّها قالت وكأنّها تُدافعُ عن نفسها: «حسنًا، سأذهب لأجهّز طعام جدتي.»

****

كان نقطةً سوداءَ ثابتةً، قابعًا أمام بيته الطينيّ الصغير، مثلَ أفكاره

التي طرقت ذاكرته كزائرٍ ثقيلٍ لا يغادر منذ عاد من بيتِ الرجلِ المريضِ. لعلّ وجهَ ابنتِه وكلامَها أثّرا فيه فتداعت الذكريات؟ لكنّ الفتاةَ نقيةٌ كجناح فراشةٍ، وشفافةٌ كرائحة الياسمين. عكسُ تلك السيدة التي أغوته، وهو فتًى حين استوى رُمحُه، وفاحت رائحة الرجولة في ثنايا ثوبه.

إنّه لا ينسى، لكنّه يطوي الذكرى كطيّ شاعرٍ لقصيدةٍ رديئةٍ. لكنّ المطر الذي غسل الطرقاتِ فجرَ اليوم من آثار العابرين، لا يناسبه؛ فكلّما أمطرت زال الغبار عن نافذةِ نفسه، ليرى ماضيَه بوضوحٍ يشوّش نقاء حاضره.

كان الجوُّ ماطرًا وقتها، وكان يركض بسرعةٍ ويرفع طرف ثوبه، فتلطّختْ ساقاه بالوَحْل، وصلِ بيت سيّده.

وقف بالباب لا يعرف كيف يَطَأُ بوابة المطبخ مع هذا التلوث الذي لحق به. خاف من الطبّاخة أن تراه فَتُعَنِّفَه، فوقف صابرًا مُرتعِدًا من شدة البرد، والمطرُ يَقْطرُ من ثيابه، حتى تَحضُرَ فتتناولَ منه الأغراضَ ويَذهبَ إلى بيته ليُغيّر ثيابه. كانت النار في آخر المطبخ، صار يَرْقُبها بعيونٍ مليئةٍ بالرغبة والرجاء كأنّها فتاةٌ عذراءُ جميلةٌ يشتهيها ولا يستطيع الوصول إليها.

لم يستطع الاحتمال أكثر، فقد طال انتظاره وتَخَشّبت أعضاؤه،

نادى بصوتٍ منخفضٍ لئلا يَصِلَ صوتُه إلى سيّدة البيت فتغضبَ، هي كثيرةُ الغضب، سريعةُ الانفعال.

نادى ثانيةً، بصوتٍ أعلى قليلاً، كان باب المطبخ مفتوحًا على الصالة، مدّ رأسه للأمام ورفعَ أصابع رجليه يَسْتشرف الصالة، لا أحد يبدو.

وضع الأكياس على الأرض بجانب الباب الخارجيّ وكاد ينسحب، لولا أنّه لمح خيالاً، فنادى بصوتٍ مسموعٍ. صُدِم ودَبَّ الرّعب في أوصاله حينما استجاب له الخيال فبدَتْ سيّدة البيت أمامه بكامل فخامتها واستعلائها. نظرت إليه ببرودٍ وشرودٍ طويليْن وهو جامدٌ مكانه. شعر بالخِزي من مظهره ومن ساقَيْه المُلطّختيْن بالوحل.

حاول مداراة الوحل بثوبه، لكنْ عبثًا، فقد عَلِقَ الوحلُ على ساقيه بِثوبِه المبتلّ فبدا الوضع أسوأ مما سبق ومضحكًا جدًا.

لم تتمالك سيّدة البيت حين رأت منظر ساقيه، أن أطلقت ضحكةً عاليةً مُستغرِقةً. وكأنّ ذلك شفع له عندها، فَدَعَتْهُ للدخول كي يجفف ثيابه قليلاً ويدفِّئ جسمه.

ترددّ طويلاً، لكنها أعادت طلبَها بلغةٍ يعرفها جيدًا ويفهمها حقًا، إنها لغة الأوامر!

أطاع مستسلمًا كأنّه حَمَلٌ وديعٌ يُقاد إلى حظيرته.

وقفت تتأمَّلُه وهو يُقَرْفِصُ أمام النّار طالبًا الدّفءَ وتجفيفَ ثيابه، لَوَت شفتيها وقالت له: «أيّها الفتى! لن يفلح هذا، الطين سوف يَجِفُّ على ساقيك بهذه الطريقة.» فهَبَّ واقفًا، وكأنّها تأمره بالتوقف عما يفعل، لم يَدْرِ ما يفعل، عيونُه في الأرض، ويدُه تتحسس ثوبه كأنّها تعتذر عمّا هو فيه.

مَشَتْ أمامه وأنفُها شَمَمٌ، «تعالَ خلفي!»

رفع عينيه، وتلفتَّ حولَه، كأنّ الحديثَ لشخصٍ آخرَ لا يراه.

أدارت ظهرها، وقالت بحزم وقد احتدّت نظرتها: « قلتُ لكَ تعالَ خلفي أيُّها الفتى!» ثم أكلّمت بتعالٍ: «لن أسمح لك بتلويثِ المكان هكذا.» ثم ضحكت: « لا زلنا بحاجةٍ لك غيرَ مريضٍ، لذا لن أسمح لك بأن تصاب بالبرد.»

تَبِعَها محبوسَ الأنفاسِ، حائرَ النظرات، متسائلَ الأحداق.

عبرتْ باب المطبخ نحو الصالة، لكنّه توقّف عند الباب كأنّه يعبر الحدود بلا تصريح، كانت تلك أولَّ مرةٍ في حياته يصل إلى ذلك المكان، كانت الصالةُ وبقيَّةُ البيت بالنسبة له عالمًا آخرَ جميلاً مليئًا بالأضواء والإثارة لم يحلم بدخوله قط، كان يتلصَّصُ عليه من بعيدٍ كما يتلصَّصُ إبليس على الجنة، أو كما يتلصَّصُ مُشرّدٌ على بستانٍ من الفواكه.

احتدّ صوتُها، فانتبه، «حاضر سيدتي، أنا قادمٌ»، رَدَّ كما المعتاد حينما تأمره بشيءٍ ما، وعبر الباب بكثيرٍ من البُطء، كأنّه يَستلذُّ بكلِّ لحظةٍ، يريد أن تُسجِّل عيونه كلَّ شيءٍ تراه.

كان يختلس النّظر حولَه دون أن يَجرُؤ على تحريك رقبته.

كان الأثاث المُخمليُّ الأخضرُ المُزيّنُ بالذهب مُبهرًا له، ولاحظ في وسطه طاولةً زجاجيّةً مُذَهّبةً، تعلوها مزهريةٌ فيها ريشُ طاووسٍ.

عبر من أمام الأثاث وقد انحرفت عيناه نحوه متأملاً مليًّا، ثم انتبه إلى الأرضية الرخاميّة العاجيّة المُوشّحةِ بخطوطٍ بُنيّةٍ. انتبه أمامه إلى تمثالٍ برونزيٍّ لولدٍ عارٍ ينفُخ في بوقٍ وله أجنحة. لم يفهم لماذا ينفخ، وكيف نَبَتَتْ له تلك الأجنحة، كان مبهورًا لدرجةِ أنّه تعثّر بأوّلِ دَرَجَةٍ أمامه.

رفع رأسه عاليًا، كانت تسبقُه بدرجَتيْن، انحنت نحوه لتُكلِّمه لم يتمالك نفسَه أن احمرّ خجلاً، وتلعْثَم وكاد يهرب، لفَرط خَوْفه من أن تثور غضبًا لو راقبت نظراته وتابعَتْها لتجدَها تتأملُ نهديْها الأبيضَيْن اللذيْن يَعُجّان بالحيوية والحياة.

لكنها تغافلت عن ذلك وقالت له: «أين تلحقُني يا مغفل؟!»

«حسنًا، الخادمة ليست في البيت والطبّاخة ذهبت لأنّ ابنتها ستلدُ قريبًا، لذا، اذهب هناك.» (وأشارت إلى بابٍ صغيرٍ مقارنةً ببقية

أبواب البيت التي لم يَلْحظها شخصيًّا، ولكنّني أخبركم بذلك لتعرفوا أنّه بابُ الحمام وحدَكم!)

«واغتسِل، ثم انتظرني ريثما أحضُر.»

ثم صعدت إلى أعلى وهي تحدّثه -دون أن تنظر إليه- بكلامٍ غاضبٍ عن الخدم الحمقى المُتعِبين!

لماذا راوده إحساسٌ أنها تشكو إليه وليس تشكوه؟! لعلّ ذلك لأنها كلَّمته مباشرةً حول الأمر ولم تُحدِّث نفسها به! كأنّه ليس خادمًا مِنْ خَدَمِها تكلَّمتْ، كأنّ الأمر لا يعنيه!

كاد يَفرُك عينيه، لشدةِ ما كذَّبَهما، لولا أنَهما ملوَّثتان، فأقنع نفسه أنّه في نومٍ ثقيلٍ لم يَسْتَفِقْ منه بعد.

«لا شيءَ حقيقيٌّ.» (قال لنفسه) لِأَستمتعْ بالحُلُم إذَنْ ولا داعيَ لِأُفوِّته عليَّ بهذه الدهشة، قريبًا أستَفيقُ بركلةٍ من الطبّاخة لتفسدَ عليَّ كلَّ شيءٍ، لا بُدَّ أن أُسرِع قبل ذلك.»

وَوَلج باب الحمام ونزع ثيابه سريعًا، ثم وقف عاريًا يتأمل فخامة المكان.

ضحك لنفسه: «يمكنني العيش هنا! هذا (الحَمّام) - قالها بإعجابٍ- أجملُ من بيتي و أوسع.»

كان يعلَم أنَّ صاحبَ البيت غنيٌّ جدًا، لأنّ بيته مبنيٌّ من الطين المخلوط بالرصاص ليمنحَه قوةً وبريقًا، خلافَ بيوت الفقراء التي

تُبنى من الطين وحده فقط، فتبدو كئيبةً متهالكةً.
تلفَّت حوله ليتعرَّف على كلِّ شيءٍ، كان واثقًا أنّ شيئًا ما خلال الحُلُم سيرشده إلى كيفية التعامل مع كل هذه الإبداعات الغريبة، ذلك المَغطَس الكبيرِ، وتلك القِطعِ الملوّنةِ كقطع بطاطا مصقولةٍ، وتلك المناشفِ الناصعةِ البياضِ الكبيرةِ.
وقف في المغطس، وصار يَصُبُّ عليه من الماء، لكنّه تَزحلَق حين ابتلَّ الطين في أرضيَة المغطس وكاد يقع لولا أمسك بطرف الصندوق الحديدي المُعلّق في زاوية الحمام، فوقعت إحدى تلك القطع الملوّنة الشبيهة بالبطاطا في الماء، هبط سريعًا ليخرجها كيلا تبتلَّ فتفسد، لكنّها صارت لزجة، اندهش حين اكتشف أنها مجرد قطعة صابونٍ وأنه غبيٌّ مغفلٌ جاهلٌ!
ضحك كالأطفال حين يفاجئهم القَدَرُ بقطعةٍ نقديةٍ في الطريق. لكنه على عادة الفقراء، يخاف من الغِنى المفاجئ، لم يستطعْ الاستمتاع أكثر، كأن ضميره يؤنّبه لذنبٍ ارتكبه، كأنّه خاف أن يُزاحم الأغنياء على عتبات الملوك، خرج من المغطس سريعًا، ولفَّ منشفةً حول وسطه، نظر في المغطس فإذا به قد اتَّسخ، شعر بالرعب، كولد كسر غليون أبيه. هبط بقوةٍ يعالج الأوحال العالقة على جنبات المغطس بيديه وبالماء، غسل يديه، اطمأنّ إلى أنّ كلَّ

شيءٍ بخيرٍ، أعاد تثبيت المنشفة على وسطه، ثم رفعها نحو صدره كعجوزٍ ضاقت ثيابُه أيام الكهولة المُتخَمةِ بالكسل، ثم اتَّسعتْ بفعل الزمن، فبدا مُضحكًا.

خرج من الحمام وقلبُه يرتجف من الخوف. أغلق الباب خلفه ولم يتحرك خطوةً، حاول أن يعالج خوفه، لكنّ سيّدة البيت جزءٌ من الحلم الذي يراوده، إنّ الأغنياء يسرقون أفراح الفقراء حتى في الحلم!

بقي ثابتًا مكانه، كأنّه تمثالٌ جديدٌ، نقلَتْه الأُسرة إلى البيت ولمّا تُقرِّرْ أين ستضعه بعدُ.

كان حافيًا، كتفاه عاريان، وأطراف ساقيْه بارزان. كان يحضُن المنشفة بساعديْه عند صدره، كأنه يحتضن هديةً.

نزلتْ عن الدَرَج، فَلَفَّه الخجل والارتباك تحت المنشفة، كانت عيناها تتربصان به.

إلى هذا الحد من الرواية، انتهى الحلم الجميل، «فالأغنياءُ لا يسمحون لنا بولوجِ أحلامِهم، إلّا إنْ كانوا قد قرّروا سرقة واقعِنا بالمقابل. فحينَ يَمُدّوننا بأسباب الحُلُم مِنْ جهةٍ، يكونون قد قرّروا سرقة واقِعنا منّا من جهةٍ أخرى» هكذا قال الراهب لنفسه وهو يجلس أمام بيته، متذكرًا اليوم الذي انقلبت فيه حياته، وتحوّل حلمُه إلى متاهةٍ في كابوسٍ لا يعرف له مخرجًا.

تنهّدَ، كان غاضبًا مقهورًا، تذكّر كيف أنّها بعدَها اقتربت منه وبحركةٍ خفيفةٍ عابثةٍ، نزعت منشفته التي تستُره، وأجبرته على معاشرتها.

كان ذاهلاً، مصدومًا، قلبُه يخفق رعبًا، لم يشعر بلذةٍ، وإنّما شعر برغبةٍ في المقاومة والهرب، لكنّه كان أسير حلمه، وأسير أوامرها، لم يَعْتدْ على مخالفة الأوامر، كان مطيعًا لسيّده، هكذا تربّى، أو هكذا كان النظام. لم يجرؤ على طلب الذهاب. كانتْ تشعر بمتعةٍ وانتشاءٍ، ليس انتشاءَ الجسد للجسد، ولكنّه انتشاءُ السُّلطة باسْتملاك أجسادِ الآخرين وإراداتهم.

«لم تكنْ تُحبُّني»، قال لنفسه «هي كانت فقط تريد استعباد كلَّ شيءٍ فيّ حتى شهوتي، والدليل أنّني بعدها لم أجرؤ على لمس امرأةٍ أو اشتهائها.»

يتذكّرُ جيّدًا، كيف أنّها بعدما فرغتْ منه، جلست بثباتٍ، لا يَرمُش لها جفنٌ ولا يَرِقُّ لها قلبٌ لحاله البائسة، وهو ضائعٌ يرتجف أمامها حينما أمرته بعدم التحرك. كان يقف عاريًا تمامًا، وكانت تجلس نصف عاريةٍ لا تبالي بشيء، ترمُقه مليًّا. ثم أمَرَتْه بأنْ يلبس ثيابه القذرة وينصرف.

استمر الحال شهرًا كاملاً، كلّما لاحت لها فرصةٌ، تستدعيه، تفعل به ما تشاء، أحيانًا تطلب منه أن يتعرّى وتقف تراقبه، مستمتعةً

بارتجافه وارتباكه، في أحيانٍ أخرى تداعبه ثم تتركه يتلوى بصمت فيما هو غارقٌ في معاناته، وتذهب، وأحيانًا أخرى كانت تروي ظمأه. كان يتألم كثيرًا، فلا هو قادرٌ على الاعتراض ولا هو قادرٌ على الطلب.

بدأ زوجها يشعر بخللٍ ما يجري في البيت؛ ارتباكُ الخادم وشحوبُه في المرّات القليلة التي رأى فيها سيدته أمام الزوج، كما ضبطه مرةً يَمُدُّ عينيه حينما لمح صوتها، وكاد الشك يتحول إلى يقينٍ حينما دخل البيت عائدًا من سفرٍ، فرآه يقف بباب المطبخ وثيابُه تَشي بأنّه لبسها على عَجَلٍ، كان جسده كذلك ينطق بشهوةٍ تقف على أشُدِّها.

لم يُطِقِ الزوج كل ذلك، فباح لزوجته بأنّه يريد أخذها، كما جرت العادة، إلى جبل (ماكسويل)[٣]، لتقسم يمين الولاء.

لم تبالِ الزوجة، رحبّت بالأمر بهدوءٍ ثابتٍ، واستغرب الخادم وقتها لماذا طلبت منه أن يُحضِر حصانًا، وينتظرَ في الطريق إلى الجبل مُلَثّمًا مُغيِّرًا لهجته.

الآن فهم كلّ شيءٍ، بعد فوات الأوان بكثير.

---

(٣) أعلى جبل على كوكب الزهرة "فينوس"، ويقع في أرض عشتار، قمته تعلو ١١ كيلومترًا فوق " متوسط ارتفاع الزهرة السطحي"، وبالمقارنة مع أعلى قمة على الأرض «إفريست»، قمة «ماكسويل» ترتفع دون ٩ كيلومترات فوق سطح البحر.

جرت العادة أن يذهب الرجل وزوجته التي ستؤدي القسم مشيًا على الأقدام، كي ينال منها التعبُ فتتذكرَ العذاب الأليم الذي سيلحق بها في الآخرة لو كذبت. كانت الطريق طويلةً بسبب بُعْدِ بيت السيّد، حتى إذا وصلا الطريق الوَعِر المؤدي إلى الجبل، واشتدّت حرارة الشمس وبدا عليها الإعياء، وقعت أرضًا لا تستطيع المضيّ قُدُمًا.

احتار السيد فيما سيفعله، حينما أشارت عليه زوجته أنها تسمع من بعيدٍ صهيل خيلٍ، طلبت منه أن يتفحص الأمر، فعاد ومعه الرجل المُلثّم والحصانُ خلفهما.

ركبت الحصان، والمُلثّم وزوجها يسيران أمامها على الأقدام.

بعد بُرهةٍ، صوتُ صرخةٍ أنثويّةٍ دوّى في المكان وتردّد صداه، التَفَتَ الرّجلان إلى الخلف فإذا بها قد انقلبتْ عن الحصان فصارت مُعلّقةً في الهواء ورأسُها يلامس الأرض وقدماها معلّقتان بسرج الحصان. كان مشهدًا مؤلمًا للزوج جدًّا، حاول سريعًا رَفْعَها فلم يستطع، لم يستطع كذلك أن يطلب المساعدة من المُلثّم، فوضعُها حَرِجٌ جدًا، ثوبها منكفئٌ على وجهها وفخذاها وما بينهما ظاهرٌ بوضوح، لعن نفسه متسائلاً، لماذا لم تَرْتَدِ ملابسها الداخلية؟! رفع ثوبها ليغطيَ عورتها، وطلب أخيرًا من المُلثّم رَفْعَها.

كانت لحظاتٍ عصيبةً، مرّ بعض الوقت في صمتٍ مضطربٍ، حينما هدأ الزوج طلب منهما استكمال المسيرة، لم يكن شيءٌ ليُثنِيَه عن مواصلة المسير إلا موتها.

وصلا الجبل، ترجّلت ووقفت على القمة وجلست على ركبتيها لتعلن قَسَمها بالولاء والبراءة والإخلاص.

كانت العادة أن تقسم الزوجة بعبارةٍ متعارفٍ عليها فتقول: «أقسم أنني مخلصةٌ لزوجي وسأبقى كذلك.»

لكنّها بعد صلاتها القصيرة التفتَتْ إلى زوجها وقالت له: «أعلمُ أنّ قلبك تأكله بعض الغيرة عليّ، لشدّة حبّك لي، ولأجل هذا الحب غير العادي سأقسم قسمًا غير عاديّ.»

ثم التفتت نحو السماء فقالت: «أقسم يا ربِّ أن عورتي لم يرها أحدٌ منذ كبرت سوى زوجي وهذا المُلثّم حين وقعت عن الحصان!»

كاد المُلثّم يفقد وعيه مرتين، حينما أوشكت أن تقسم اليمين، فهو يعرف كم هو قاسٍ وصعبٌ أن تُدلِي بقسمٍ كاذبٍ، وحينما أقسمت اليمين، لم يصدق كيف صَدَقَتْ في يمينها، وفي الوقت نفسه اعترفت لزوجها بخيانتها له وهو لا يشعر! لقد عرف الآن لماذا طلبت منه إحضار الحصان، ولماذا طلبت أنْ يغطي وجهه! لقد جعلته يرى عورتها بسقوطٍ مقصودٍ، لتشمله في القسم البريء! يا

لكيد النساء حين يفعلن!

حبس أنفاسه حتى قطعا الطريق الجبليَّ الوعر عائدين، إلى أن قرر الزوج الاستغناء عن خدمته، فأنقده بعض المال ليكملا سيرًا طريقهما والزوج يملؤه الرضا عنها.

حينما ذهبا، لم يستطع إكمال المسير، وقع منهارًا وبكى بشدةٍ حتى المساء.

ظل يتقلّب ألمًا وحُرقةً، بدأ شيءٌ من الرفض والنفور يتولّد في داخله، لكنه لم يخطر له مطلقًا أنّه سيمُرّ به يومٌ يتمرد فيه على الوضع، حتى طلبته سيدته، وكأنّ شيئًا لم يكن، داعبت وجهه قليلاً، لم تكن تهتم بشحوبه ونحوله، لكنها استنكرت جموده، حاولت أن تثيره بالقُبُلات، لكنّه بقي جامدًا، كان لا يزال يتذكر كيف خدعت زوجها ولعلها خدعت الله كذلك حين دبّرت أمر القسم. استيقظ فيه صوتٌ يردّد دومًا: «أنت حجرٌ لا قيمة له، أنت دميةٌ يتسلون بها، أنت خرقةٌ نظيفةٌ، تزيل أوساخهم، فينْظُفون وتَتّسخ أنت.»

حدجَّته بغضبٍ شديدٍ، وبقي جامدًا لا يتأثر، فهبطت ونزعت سرواله بعنفٍ وبدأت تداعب رغبته الحميمية بقسوةٍ، بدأ يضعف ويتأثر، بدأ الدم يسري في أدقّ تفاصيله، لولا أنّه تذكّر جبل (ماكسويل)،

فارتخت أعضاؤه. حينما لاحظت ذلك، ضربت بين فخذيه بيدها، لكنه لم يشعر بألم، كان يشعر بسعادةٍ تدّب في أوصاله، إنّ ضربَها له شهادةٌ يعتزّ بها، إنّه يشعر الآن بلذةٍ لم يشعر بها من قبلُ معها. كانت تحاول إيقاظ رغبته، رفعت رأسها لتتفحص ملامحه، كان ينظر إليها نظرةً فوقيةً، صُدمت، فوقفت قليلاً قليلاً، ابتعدت عنه خطوةً، وهي لا تصدق أنّ هذا ما يجري الآن.

ظلت تتأمله وأنفاسها تتلاحق، وهو لا يغضُّ الطرف عنها. أخذت نفسَها عميقًا، ثم أمرته بالانصراف، وانهارت صامتةً على الأريكة، وضعت وجهها بين كفيها، وغرقت في تفكيرٍ عميقٍ.

يتذكر أنّ القلق بدأ يساوره، حينما غاب خلف باب المطبخ الخارجيّ، كان يدرك أنها غاضبةٌ كفايةً وقاسيةٌ كفايةً لتؤذيه بكلِّ طريقة، لا يعرف هل بقي مُصرًّا على موقفه، أم هل غيّرت تعاملها معه. لا يذكر الآن شيئًا من ذلك، كان تائهًا وضائعًا كفايةً لِتَتَغَبَّش الرؤية، لو عاد وتأمّل نفسه لفهم ما الذي جرى.

الآن بعد عشرين سنةً، يذكر فقط ما جرى أخيرًا حينما خرج من المدينة خائفًا يترقّب.

كلُّ ما يتذكّره أنّه دخل المخزن ليُحضر بعض الحاجات للطباخة، فلمح ثيابًا ملقاةً على الأرض، قلّبها فبدت لفتاةٍ فقيرةٍ. تلفّت حوله

فلمح أقدامًا ممددةً على الأرض تبدو من خلف رَفِّ المُخلّلات.
اقترب وهو ينادي بصوت منخفض: « مَنْ هنا؟» لا مجيب.
اقترب أكثر، وقف مباشرةً أمامها، لم يفهم ماذا جرى، رقبتُها الغارقة في الدماء، سائسُ الجِياد، يباغته فيطرحه أرضا مغشيًّا عليه.
يذكر ما صار جيدًا بعدها، لأنّه لم يستوعب الأمر إلا بعد مدةٍ طويلةٍ، حينما هدأ وأمِن.
يذكر أنّه استيقظ بفعل الماء البارد على وجهه وجسده، شعر بحرارةٍ لا تطاق بسبب الماء، لم يعرف أنّ الماء لامس جروحه المفتوحة، وجد نفسه مربوطًا، وجَمْعٌ كبيرٌ من الناس حوله يَسُبّونه ويبصقون عليه.
وسيد البيت يردّد تساؤلاتٍ غريبةً عن اغتصابٍ وجريمة قتل. لكنّه فهم أنّ حُكمًا بالموت ينتظره.
في تلك الليلة وقد هبط رأسه من شدة الجوع والألم والبرد، سمع وقع خطواتٍ، كان بين المُستفيق والغائب عن الوعي لم تسعفه القوة الكافية ليرفع رأسه، ليس واثقًا هل هو شبحٌ أم إنسانٌ ذلك الذي قال له: « لتعرف أنّ من يعاندني يندم، و حتى لا تتمرد على أسيادك، وتفكر في البوح، لِتَمُتْ إذن كما يموت الخائنون.»
كانت نفسه المنهكة هادئةً من الداخل، لقد شعر بفخرٍ لم يشعر

بمثله قط، فقط وهو مصلوبٌ الآن شعر بطعم الكرامة، وعرف أنّ نقطة تحوّله إلى إنسان كانت عندما بدأ يتساءل ويحتار. حينما رفض ذلك الخداع على جبل (ماكسويل)، ورفض أن يكون قطعةً في بناءٍ كاذبٍ، أدرك أنّ له قيمةً.

هل غفر له الرب؟ هل مدّ له يد المساعدة؟

كان يسأل نفسه وهو يتذكر كلَّ ما جرى أمام بيته الطينيّ في صباح ذلك اليوم المغسول بالمطر.

كانت الذكرى تمرّ سريعًا، لا شك أنّ الربّ نظر إليه بعين الصديق المشفق الرحيم، لقد نجا وقتها بأعجوبة، حينما وقع الزلزال وتكسّرت الخشبة التي ربطوه بها، انشغل كلٌ بنجاته، وعرف هو كيف يهرب، ظلَّ يركض طويلاً حتى خرج من المدينة، إلى تلك الكنيسة، وقع ببابها فأنقذوه.

هناك تعلّم كيف يصلي ويساعد المرضى.

بقي مدة سنةٍ هناك، حتى إذا كاد يأمن ويستقر رأى سيد البيت قادمًا نحو الكنيسة فاختبأ، لكنّ قلقه دفعه ليتسمّع الأخبار. تسلّق الدرج على يديه ورجليه، ومشى عبر جسور الخشب الممتدةٍ في السقف، وأنصت.

كان سيد البيت يريد أن يحضر زوجته للعلاج، بعدما يئس من

شفائها، لقد أصيبت بضررٍ كبيرٍ منذ سنةٍ إثْر ذلك الزلزال!
يا لتدبير القدر!
لكنّ قلبه كاد يتوقف حين عرف أنْ السيد سيعود مع زوجته إلى الكنيسة، فقرر الهرب. سرق ثوبَ راهبٍ، ومضى حتى وصل إلى هذه القرية الوادعة.
والباقي، حتى هذه اللحظة، تعرفونه، لكن الذي لا يعرفه الراهب، أنّ القادم أعظمُ ممّا كان، وسيؤثر فيه إلى الأبد.
مدّ بصره بعدما غمرت الشمس المكان، وشعر بالدفء، راقب القرية تستيقظ وتتحرك، كأنّه يستيقظ معها من كابوسٍ ما. كان يرى جميع العابرين بوضوح، كانوا يُبطِئون سيرهم حين يعبرون الطريق المقابل لبيته أسفل الجبل تبجيلاً له، ممّا يتيح له فرصةَ تفحُّصهم بفضولٍ بريءٍ. أحيانًا يرفع أحدُهم يده بالتحية له، وأحيان أخرى يقفون وقوفًا كاملاً ويتوجّهون إليه بكامل أجسادهم في انحناءةٍ خفيفةٍ.
كان بصره في تلك اللحظة مركّزًا على تلك الطريق الفرعيّة المُفضِية إلى بيت الرجل المريض، رأى تلك الصبية، وهي تخرج من الطريق الفرعيّة إلى الطريق الرئيسة، عرف من توجُّهها يسارًا أنها ستذهب إلى بيت جدتها المريضة، فهو يعرف الآن كلَّ التشابكات الاجتماعية في القرية، بل ويعرف كذلك مواعيدهم وعاداتهم.

اقتربت من بيته فوقفت وحيّته بانحناءةٍ من رأسها، وقف وحيّاها بالطريقة نفسها، لاحظ الدهشة والوجوم المفاجئيْن في ملامحها، لكنّه لم يعرف السبب، إلا حينما مرَّ رجلٌ فَضَّ اشتباكه مرّةً مع زوجته التي ضربها لأنها أساءت الأدب حين تشاغلت بالجارات عن تحضير الطعام، مَرَّ به الرجل ووقف للتحية، فردها بابتسامةٍ من وجهه. لقد فطِن الآن، لماذا استغربت الفتاة، يا إلهي! فهو لم يقفْ لأحدٍ لردّ التحية من مكانه هذا مِنْ قبلُ.

ما الذي يجري؟ استغرب كثيرًا من نفسه، خاصة أنّها فتاة، فهو يكره جنس النساء، بحث عنها بنظره، لكنّها اختفت الآن. هل هو معجبٌ بطريقتِها البارحةَ، فَلَمَسَ كلامُها شيئًا نظيفًا في قلبه المُثقل؟

توتّر كثيرًا، فقرر أن ينزل ليُمشِّي رجليه، صلّى صلاةً سريعةً ونزل الجبل.

عادةً ما يَتَمشّى بعيدًا عن الناس، لكنّه هذه المرّة سار في الطريق بين البيوت، كانت يداه معقودتان خلف ظهره، ورأسُه مُطرِقٌ يُفكّر. لم ينتبه لكثيرين حَيَّوْه، لم يكن من شيءٍ محددٍ يفكر فيه، لكنّه يتحاشى النّظر في الوجه فتصنَّع انشغال البال.

لم يرفع عينيه إلا أمام بيت الجدة، كان ذلك مفاجأةً ثانيةً من نفسه هذا الصباح. سأل نفسه: ماذا أفعل هنا؟

أجاب سريعًا: تلك العجوز المسكينة المقهورة، لقد أبطأتُ في زيارتها منذ مدة، جيّدٌ أن يسوقني الله إليها الآن.
طرق الباب، وانتظر.

****

رفعت رأسها بعدما تناهى لسمعها صوت زوجها من الداخل، دخلت وأغلقت الباب خلفها. كانت آثار الإرهاق تُعمّق التجاعيد في وجهها. وقفتْ بالباب تأمّلته وهو يشير بأصبعه، طالبًا تقريب الوعاء لقضاء حاجته.
تقدّمتْ بِثِقَلٍ، رفعت ظهره وثيابه، وهيّأته، أخفضت عيونها للأرض ساهمةً، ثم تنهدتْ، لم ينتبه لما هي فيه لفرط ما عانى وهو يقضي حاجته، رغم الطعام القليل والخفيف الذي يتناوله.
مرّت دقائقُ ثقيلةٌ وكلاهما مُنشغلٌ بأمر نفسه، قبل أن يلحظ شرودها، ففطِن أنْ يسألها عن ولديْه.
أغمضت عينيها، إنّها تخاف أن يقرأ ما تفكر فيه، ثم قالت:
- لم يعُدْ منذ البارحة، وابنتك ذهبت لتساعد جدتها، وأنا كنت أتفقّد الحقل.
- وكيف وجدتِ الحقل؟
- بخيرٍ، الخراب ليس كثيرًا.

ردّ كأنّه يعتذر:

– آسفٌ، لا أستطيع العمل لتحصيل رزقي، شكرًا لأنّك تشاركينني رزقك.

قالت بغضب:

– أشاركُك لظروفك، لا بأس، لكنني لستُ مجبرةً أن أشارك رزقي مع ابنك الذي لا يهتم بشيءٍ.

– ستزول رُعونتُه، وغدًا حين يكبر سيبحث عن رزقه بنفسه، لن نتركه يموت جوعًا بسبب طيشه.

– لكنّك هكذا تخالف تعاليم الدين، الذي يأمر كلَّ نفسٍ بحفظ نفسِها، والسعيِّ على رزقها، حين تزوجتُك وضَممْتُ رزقي إلى رزقك، ثمّ أصابك ذلك الحادث، اتفقنا أن اهتمّ بالأمر وحدي عني وعنك، مقابل أجرٍ محددٍ أقتطعه من الربح، لكنْ أنْ يأكل ابنك من المال بلا تعبٍ، وأنْ يضربني لأنني أرفض منحه كلَّ ما يريد، هذا ليس عدلاً، والربّ لا يرضى ولن يرضى بذلك.

تنهّد، وسألها بضيقٍ وعجزٍ:

– وماذا نفعلُ إذن؟

– تصرَّفْ! إمّا أن تعطيَه من نصيبك أو تجبرَه على العمل، شخصيًّا لن أقدِّم له بعد الآن شيئًا.

– سيتحوّل إلى سارقٍ، لو تركناه. (قال مُتذرِّعًا بخجلِ المغلوبِ على أمره.)

– أنت تعي جيدًا أنّ كل فردٍ منّا، قوّامٌ على نفسه بما أنفق من ماله، فليتوكل وسيرزقه القدير، نأكلُ ونطعِم صغارنا، حتى إذا كبروا واشتدّ عودُهم، علّمناهم ثمّ سَرَّحناهم بالمعروف.

لقد طلب منّي الربُّ أنْ أعمل واكسب رزقي، لم يطلبْ منّي مثلاً لأنني أضعَفُ جسدًا أن أُنفق على ولدي الكبير لأنّه مهملٌ كسولٌ.

إنّ الذي أمرني أمره، أنتم معشر الرجال لا تدركون حجم معاناة المرأة التي أنصفها الربّ بأنْ تنفق من عملها، ثم ظلمها الرجل فسرق مالها، وأحيانًا يضربها!

ثم حَدَّجته بنظرةٍ قاسيةٍ، تلمح إلى ضربِه لها قديمًا أيام قُوَّتِه حينما كانت ترفض أن تعطيه من مالها، ثم تقليد الابن لأبيه، حتى دون أن يشارك في العمل.

صمت طويلاً، ووعدها أن يُكلِّم ابنه في الموضوع.

نظّفت المكان وخرجت تُحضِّر الطعام، حينما دخل ابنها البيت باحثًا عن شيءٍ يأكله. سمع الأب صوت ابنه، فناداه، لكن الابن تذرّع بالتعب وذهب لينام إلى حين تجهيز الطعام.

حينما استيقظ من نومه، هرع إلى المطبخ حيث الطعام، طلبت أمه

أن ينتظر حتى تَحضُر أختُه، لكنّه استمرّ فيما يريد كأنْ لم يسمع، ناداه أبوه ثانيةً، كلّمه، بقي صامتًا مُطرِقًا، ثم خرج إلى غرفة أمه وبدأ بالصراخ:

– لماذا أنجبتني ما دمت لا تريدين أن تنفقي عليّ؟ لمن كل هذه الأموال إذن؟

– كلّ هذه الأموال؟ ألا ترى حالنا؟ نحن نتعب وبالكاد يكفينا ما نَجلِبه، وأنت لا تشارك في شيءٍ مطلقًا.

– لن تمنعيني مِنْ فعل ما أريده. ستعطينني من المال ما أريد، وإلا أحرقتُ الحقل، ساعتها، سنكون سواءً، لا أحدَ سيَجِدُ ما يأكله.

– يا بُنيّ، لا أريدك أن تظلّ كسولاً هكذا، هذه كل القصة. غدًا تتزوج فكيف ستعيش؟

– لن أتزوج، حين أفعل لا شأن لك بي، أمّا الآن فأنا مشغولٌ جدًا ولا يمكنني العمل.

– ما الذي يشغلك؟ (انتفخت غضبًا)، الفتيات؟ الخيول؟ السهر والسفر مع صديقك ذاك؟

– لا شأن لك بصديقي!

– لن تأخذ شيئًا من الآن فصاعدًا، اعتمد على نفسك.

– سنرى.

ثم دفعها ودخل غرفتها غاضبًا، كان يبحث عن المال، تَبِعته مسرعةً، حاولتْ منعه، لكنّه لفرطِ غضبه أوقعها أرضًا، شدّت رِجْله وهي تبكي، لكنّه سرق نقودها وركل صدرها وخرج.

صرخت فيه وهو يسرع الخطى: «لم يخلقنا الربّ من ضلوعكم، لتكسروا تلك الضلوع»، ثم بَكَت بحرقةٍ. وقالت بصوتٍ مُنكسِرٍ بعدما خرج: «يا ولدي، من يسرقْ رزقَه، لن يرتاحَ في الصلاة لربه! يا ولدي، من يسرقْ أهله يسرقْ وطنه ولا يبالي!»

****

فتحتِ الباب، فأطرق الراهب خَجلاً، أمام دهشتها بزيارته المفاجئة، فهو لم يعتدْ زيارة أحدٍ دون أن يُستدعى. نزع القُبّعة عن رأسه، حاول أنْ يبرّر زيارته وهو يعصُر قبّعته بين يديه قائلاً:

«بُنيّتي، كيف حال جدّتِك؟ سمعت من بعضهم أنّها مريضةٌ جدًا، وقد جئتُ لرؤيتها لأنها تعيش وحيدةً، لم أتوقع رؤيتكِ هنا.» قال جملته الأخيرة بجهدٍ بالغٍ، فهو منذ زمنٍ بعيدٍ لم يكذب.

فاجأه موقفها، حين طلبتْ منه بسعادةٍ بالغةٍ أن يدخل.

سبقَتْه إلى سرير الجدّة بحماسٍ، جَثَتْ على رُكبتيها عند رأس الجدة، وهي تهمِس لها وتداعب شَعْرها، كمن يحاول إمساك فراشةٍ دون أن يخدِش أجنحتها الرقيقة. بالطبع لم تستيقظ الجدة

التي تَغُطُّ في نومٍ عميقٍ وشخيرُها يعلو في المكان. التفتت إلى الراهب بابتسامةٍ، وقالت له بمرحٍ لترفعَ عنه الحرج: «مِنْ بركاتِك أنّها نامت حين أتيت وهي التي لم تستطع النوم منذ البارحة.»

وقفتْ وطلبتْ منه الجلوس، ريثما تُحضرُ له شيئًا يشربه، فالجوّ باردٌ والنار شاحبةٌ نحيلةُ القَوام.

جلس، وعيونُه تراقب ظهرها المشدودَ كأعصابه؛ كان صمتُها واحترامُها الشديدين له يثيران انزعاجًا شديدًا في نفسه.

قدّمت له الشاي، ولبثت واقفةً، حين أمسك كُوبَه دعا لها، لكنه تصنع الدهشة لوقوفها، فطلب منها الجلوس قُبالته. احمرّت خجلاً، وأبَتْ بشدةٍ مؤكدةً أنّها مرتاحةٌ لوقوفها، لكنّه قال:

- يا بُنيّتي وُقُوفك يُؤذيني.

- لماذا يا أبَت؟ (سألت بفزعٍ، ثم جلست على الأرض قبلَ أن تسمع جوابه.)

لم يُجِبْها، فقد كان مُريحًا جدًا له أن تجلس قبالته على الأرض بينما يجلس هو على الكرسيّ، ساعتَها يمكنه النظر إليها بوضوحٍ دون أن يضطر إلى رفع رأسه.

بادَرَها الحديث قائلاً:

- بُنيّتي، أعرف ما تعانينه في بيتكم بسبب تصرفات أخيك، ومرض

أبيك، واعتماد أمك الكامل عليك، رغم أنّك الأصغرَ سنًّا.
لاحظ الحزن يُغبّشُ ملامح وجهها الصافية، رغم إطراقها، لكنْ فجأةً أشرق وجهُها، فرفعته وقالت مبتسمة:
- لا تخف عليّ يا أبتِ، رغم كل شيءٍ أنا سعيدةٌ لأنني أملك جسدًا قويًّا، قادرًا على القيام بالواجبات، حينما أفكر في مرض أبي وعجزه أشعر أنّني يجب أن أشكر نعمة الصحة ولو كان ذلك مُتعِبًا.
لم تخدعْه كلماتُها، فالحزنُ الساكنُ في عينيها وَشَى بها، لكنه ابتسم تعاطفًا معها. سكتت وأطرقت كأنّ الحوار انتهى، لكنّه رغب في حديثٍ أطولَ فقال:
- بُنيّتي، أرجو ألّا يشغلك شيءٌ عن صلواتك، الحقيقة أخاف على قلبك من شدّة الحزن والظلم أنْ يسكنه بعض الحقدِ أو الغضب، لا أريدُكِ أن تتوقفي عن محبة الآخرين، أو أنْ يمنعك العمل من صلواتك.
رفعت رأسها بدهشةٍ، وقالت بعفويّةٍ دون أن تفكر:
- كلا يا أبتِ، لا تَخَفْ عليّ! فأنا أعلمُ أنّ المحبّةَ مائدةُ الربّ المقدسةُ، والحقدَ وليمةُ الشيطانِ العامرةُ.
وأنّ العفوَ سَلّةُ الربّ الملأى بالسنابل، والانتقامَ حقلُ شوكٍ طلْعُه كأنّه رؤوس الشياطين، فاخترْ لنفسِك ما شئت، فأنت آكلٌ ما تزرعه.
ثم ابتسمت، لم تعرفْ مقدار تأثير كلماتها في نفسه؛ بقيت أنفاسُه منقطعةً

لحظاتٍ وهو يحدّق فيها، خجِلتْ فغضَّتْ طرفها، وحرّكتْ كأسها.
ثم سألته بتردّدٍ، حين رفعت رأسها فوجدته لا زال يحدّق بها، كأنّه صنمٌ.
- هل أخطأتُ في شيءٍ يا أَبَتِ؟
حين سمع صوتها ينساب، تحرّك كأنّه تمثالٌ دَبّتْ فيه الروح فتحرّر من قالب شمعٍ.
كرّرتْ سؤالها، لكنّه بقي واجمًا، كان مبهورًا بكلامها العجيب، شعر للحظةٍ كأنّها تنطق بوحيٍ من السماء في رسالةٍ خاصّةٍ جدًّا له وحده، شعر كأنّ كلامها رسالةٌ مُشفّرةٌ من السماء إليه وحده.
كأنّها رسالةٌ من السماء تُجيب عن كلِّ أسئلته، وتَشفي جروحَه الماضية، وتمسَح ذكرياته القديمة، لقد قدَّمتْ له هذه الصغيرة، الدواء الشافي لكلِّ أحقاده ورغبته في الانتقام طوال عقدين من الزمان، لقد عرفتْ أكثرَ منه كيف يعيش الإنسان سعيدًا، دون أن يتهرّب من واقعه الأليم.
تأمَّلها، ثم همس:
- أنت قِدّيسةٌ، مسكونةٌ بروحٍ نورانيةٍ.
- لا يا أَبَتِ، لست إلا تلميذةً أمام قداستك ونورك (قالت ببراءة المؤمنين.)

كان يتلظّى بسؤالٍ داخلَه، شعر أنّ الجواب سيرسله الربّ على لسانها لو نطقت، لكن كيف؟ وهي التي لا تتحدث إلا حين تُسأل، هي لا تعرفُ أيَّ روح تلك التي تنطق بها!

فكّر في طريقةٍ يطرح من خلالها مشكلته دون أن يُشعِرها بذلك، ليكون جوابُها عن سؤالٍ في نفسه.

فكّر قليلاً ثم قال بحذرٍ، مصطنعًا القلق عليها:

- بُنيّتي، أخاف عليك من ظلمهم، أن يحول بين قلبك وبين الرب.

نظرتْ إليه بتساؤلٍ، شعر بانكماشٍ وحيرةٍ، ثم أضاف وقد بدا القلق والحزن في عينيه:

- أحيانًا يتحوّل ظلم الآخرين لنا إلى سحابةٍ سوداءَ تملأ القلب فتحُول بين المرء وصلاته، وحلاوة مناجاته، حسنًا.. أعني.. أنني.. أقصد.. ألا تشعرين أنّ ظلم الآخرين لك يحيط قلبك بغمامةٍ سوداءَ تحجُب نور الربّ؟

- كلّا يا أبَتِ! (ردّتْ باستنكارٍ وضيقٍ، ثم أكملت):

- لا شيءَ يحُول بينك وبين الله إلا أنت.

(لا شيء يحُول بينكَ وبين الله إلا أنت)، ظلّتْ هذه الكلمة تتردّد في روحه كأنّها زوبعةٌ لفّتْ جوانحه وحملتْ معها كل ما تبقّى في روحه من ظلامٍ ومشاعرَ سلبيةٍ ورحلتْ، أحسّ نفسه نقيًّا كَيَوْمِ

ولدته أمه. بقي صامتًا هائمًا في عوالمَ جديدةٍ لذيذةٍ، حتى انتبه لصوت الجدّة تسعُل، لقد استيقظت.

حين رأته فرحتْ بشدّة، وكادت تقف على رِجليْها لترحب به، لكنّه منعها من مجرد القعود، شفقةً بها.

قرأ لها بعض الصلوات، لم يحمل معه البخور، فهو لم يُرتّب للزيارة، لكنه اعتذر بالنسيان، هذه المرة الثانية التي يكذب فيها في يومٍ واحدٍ، تحدّثا بعضَ الشيء وقدّم لها بعض النصائح الطبية، ووجدها فرصةً مناسبةً ليُحدِّث الصَّبيّة حول الأعشاب وهو يخرج من البيت، شرح لها بالتفصيل كيف تُحضِّر الأعشاب، ووعدها خلال زيارته القادمة للجدة أن يعلِّمها المزيد حين يُحضِر معه بعض الأدوية النادرة.

في الحقيقة، لم تكن الأدوية نادرةً، كانت تلك كذبته الثالثة، لكنه بحث عن حافزٍ يدفعه إلى رؤيتها هنا ثانية، بعيدًا عن صياح أمها وأنين أبيها، وانشغالها في المطبخ.

ودَّعها عند مدخل البيت، ثم انصرف.

****

(لا تكُنْ دودةً تسحقُها الأقدام، ولكنْ كُنْ نسرًا يحلّق في الفضاء.)

ردّدتْ هذه العبارة الشهيرة، وهي تراقب دودةً صغيرةً تتسلّق

صخرةً، لعلها تبحث عن الدفء بعد المطر.
هل تبحثُ عن رزقها؟ أم هل تُغري عنكبوتًا ما بلحمها؟
سرحت بخاطرها، وهي تتأمّل الدودة:
«قديمًا، كنتُ أخاف من الحشرات والزواحف. كنت أخاف بشدّةٍ لدرجة أنني لا أستمتع بجَلسةٍ تحت الشجر وخيالي يلوِّح لي أنني في أيّة لحظة قد أكون ضحيةً من ضحايا دودةٍ ساقطةٍ كالتفاحة عن الشجرة. (تشعرون بالاشمئزاز من حديثي؟ تمهلوا!!)
الشيء الوحيد الذي لم أخافه يومًا هو النمل بكل ألوانه وأحجامه.
ثم كبرتُ قليلاً أو كثيراً، -أذكر أنني احتجت وقتًا لأتخلص من رُعبي- بدأتُ بالتخلص منه لمّا أدركت في لحظة تساؤلٍ عفويّةٍ وغيرِ مقصودةٍ عن سبب خوفي خصوصًا من الدود.
تذكرت جاهدةً أنّ الأولاد المشاغبين كانوا يضعون الدودة التي يجدونها على شجرة المشمش على عصا طويلةٍ ويركضون خلفنا ضاحكين بهستيريّة، فنُقابِلُ تلك الضحكة المجنونة بخوفٍ هستيريٍّ، بدأ مُفتعَلاً بدايةً لتتناسب ردةُ فعلنا مع أفعالهم الشقية.
من هنا بدأتُ أدركُ سبب خوفي، وأدركت أنّه غيرُ حقيقيٍّ ولا فطريٍّ ولا بدائيٍّ.
ثمّ مع تطوُّر قدرتي على اكتشاف ذاتي ومواجهتها، وفي تأمُّلٍ

مضحك، وكان مفاجئًا لي الحقيقة، أيقنتْ في لحظة عصفٍ ذهنيٍّ، -مقارنةً بعمري يُعَدُّ عصفًا ذهنيًّا- أنّ هذه الدودة أو العنكبوت هي التي تخاف مني وتهرب سريعًا لو شعرت بوجودي، وأنني للحقيقة مصدرُ الخوف والرعب لها وليس العكس!!!

أستطيع سَحْقها بسهولةٍ في حين لا تملِك لي أيَّ ضررٍ مطلقًا.»

تبسَّمَتْ حين تذكرت قُوّتها وعجز الدودة. قالت لنفسها:

«ولكنّي لم أستغلَّ ذلك لأنتقم من كلِّ خوفي القديم نحو الدود. كنتُ مسالمةً لدرجة أنني امتنعت عن أذيّة أيّة حشرةٍ أُصادفها في حياتي، أتركها لتلتقط رزقها، وأحيانًا أتنحّى عن طريقها أو أحفر لها في الأرض طريقًا لو كانت دودةً أرضيةً كان الدود الأشدَّ إخافةٍ لي. ولكني كنت أفعل ذلك بقرفٍ واشمئزازٍ (كالذي سيصيب بعضكم وهو يقرأ هذه السطور.)

تأملتُ الدودة ثانيةً، هل تشعر الدودة بي أو تخاف منّي الآن؟ كيف أبدو لها؟ لعلني أمامها شجرةٌ كبيرةٌ أو صخرةٌ مناسبةٌ للتسلق.»

(عند هذه النقطة شعرت فجأةً بتطورٍ آخرَ في موقفها، فهتفتْ:

«هي مخلوقةٌ مثلي من طين وماء. هي ذاتُ أعضاءٍ حيويةٍ مثلي، صحيحٌ هي لا تملك عقلي ولا شعوري كإنسان، ولكنها تأكل وتخاف ذلك الخوف الفطري.

إنها مخلوق من مخلوقات الله مثلي!
كان يمكن أنْ أكون دودةً أو عنكبوتًا أو شيئًا مشابهًا.
يا إلهي!!
إلهي؟
إنّ الإله الذي أتحدث عنه قد خلقني وخلقها سواءً بسواء، صنعنا من مادةٍ أوليّةٍ واحدة. فبماذا أَفْضُلُ عنها، وكلانا مخلوقٌ ضعيفٌ من مخلوقات الله؟»
راقبتْ مشاعرها، اقتربت من الدودة لتفحَص خوفها: «لا شيء، هل أشعرُ باشمئزازٍ أو قرفٍ؟»
قالت لنفسها:
«لمْ أَعُدْ أشعر بالقرف من أيٍّ منها.»
تأمّلتها وابتسمت، بل حاولت تَخَيُّل نفسها مكانها للحظاتٍ.
«أصبحت أشعر بتواضعٍ أكبرَ وأنا أتخيل نفسي مجرد دودةٍ!»
هتفتْ لنفسها وهي تراقب مشاعرها:
«إنّها ليست مخلوقًا حقيرًا، أعتقد أننا كبشر، أكثرُ حقارةً وإثارةً للاشمئزاز منها، هي تَلْقُطُ رزقها وتتعب فيه، كما أنها لا تؤذي أحدًا. هذه الدودة أحبُّ إلى الرب من بعضنا!
إنَّها...

قفزتْ من مكانها فجأةً حين فزِعتْ من صوت أحدهم يناديها، التفتت، فإذا به صديق أخيها، يقف قريبًا منها وقد عقد يديه ومال برأسه ضاحكًا.

«لقد ناديتُ كثيرًا، لكنّكِ مستغرقةُ الخيال، يبدو أني أفزعتك.»

بقيتْ صامتةً، لا تعرف بِمَ تجيب، شعرتْ ببعض القلق، وهي تنظر إلى البعيد فلا ترى أحدًا حولها سواه.

حين خرجت من بيت الجدة، شعرت برغبةٍ مُلحّةٍ للمُضيّ نحو الجبل، للاختلاء بنفسها، منذ مدةٍ لم تُتَح لها تلك الفرصة. لم تتوقع أن تصادف أحدًا هناك.

سألته بقلقٍ خَجِلٍ: «ماذا تفعل هنا؟»

هزّ كتفه متجاهلاً سؤالها، وقال: «هل أنتِ خائفةٌ مني؟»

لم تكن تشعر بالخوف، لكنها شعرت بانزعاجٍ وحرجٍ، تلفّتَتْ بتوترٍ فأصابت نظرتُها الدودة.

قالت لنفسها: «الدودة لم تسبب لي هذا القلق والتوتر، هي لم تقتحم عالمي، لعلني كنت أنا المزعجة لها، لعلني كنت فضوليةً بشأنها، كما يفعل معي الآن.»

مال بوجهه ليقابل وجهها، شعرت أنّه يسرق نظرها، ابتعدت خطوتين، ثم حملت صندوق الطعام الفارغ، لكنه اعترض طريقها

قائلاً: «لماذا تتهرّبين مني؟ هل تظنين أنني لا ألاحظ بريق عينيك واحمرار وجهك حين أقترب لرؤية أخيك؟! كُفّي عن خجلك، لأُمتّعك بقليلٍ من الحب.»

لم تكن صدمتُها برؤيته، كصدمتِها بكلامه، حتى شعرت بالقرف منه. دهشت لهذا التحول المفاجئ في شعورها، دهشت كيف لم تَرَ روحه مظلمةً هكذا من قبل. لعل السبب هو طيبتُها المُفرِطة في رؤية الجميع طيبين؟ لعل السبب هو أنها رأته من بعيدٍ فتوهّمته كما تَمَنَّته؟ لعله خبيرٌ كفايةً مع الفتيات ليخدعهن، فصدّقت خداعه؟

لكنّها الآن لا تصدقه، صوتٌ داخليٌّ يقول لها: كلما ازداد الرجلُ قدرةً على الإغواء أو الإغراء، كان أقلَّ أمانًا. لا تصدقي رجلاً يُتقِن فنّ المغازلة والحب والجذب.

أرادت الذهاب لكنّه اعترض طريقها. قال لها:

– صدِّقيني، لكِ في قلبي مكانةٌ خاصةٌ، لعلني كُنت فَجًّا في كلامي، لكنني مهما رأيت من فتياتٍ، ومهما عرفت تظل لكِ مكانةٌ خاصةٌ، فماذا قلتِ؟ منذ مدةٍ وأنا أرغب بالحديث معك، وأنْ أُعبّر لكِ عن مشاعرَ لا يمكن لأخرى أن تحظى بها عندي.

نظرت إليه باستغرابٍ، هزّت رأسها بخيبة أملٍ لكلامه، أخذت نفسًا عميقًا وقالت له:

– ليس بعاشقٍ من غَضَّ طَرفه وأرسل قلبه.

في عُرف المحبين: غَضُّ القلب قبل غَضِّ البصر، لأنّك تراه بقلبك، ويسكن عينيك.

أمّا غضُّ البصر فألّا يُسَرّ طرفك بغير رؤياه، وأما غضُّ القلب فأنْ تَذهَل به عمّن سواه.

وحصيلة الأمرين: أن يقع في قلبك مدحُ غيره لك، موقعَ الذمّ. وأنْ تؤذيَك نظرات الإعجاب من غيره كما يؤذيك الصقيع.

نظر إليها وقد فَغَرَ فاه، وتبلَّدتْ ملامِحُه، شعرتْ أنّه لم يفهم حرفًا مما قالته، فضلاً عن أن يشعر به.

بعدما ألجمتْ فاه عن أيِّ ردٍّ، تركته ومضت في طريقها.

لم تلْحظ تلك النظرة القاسية الساخرة في عينيه حين انتبه وتعقَّبها ببصره، لكنَّ الراهب الذي انشغل بها، ولحِقها من بيت جدتها إلى الجبل، لاحظ تلك النظرة، لكنّه لم يفهمها كما يجب، لأنّه رآهما ولم يسمعْ حديثهما إذ لم يَبْدُ على وجهها إلا ملامح الدهشة، لعلها دهشة الحياء المفاجئ لظهور حبيبٍ غير منتظرٍ، لذا ظنّ أنّ بينهما علاقةً ما، ولو أنّ تلك الفكرة لم تَرُقْ له، ولم تنسجم مع انطباعه عنها.

****

استبدَّ القلق بالراهب، لم يتوقف عن التفكير لحظةً فيما قالته له الفتاة في بيت الجدة، ولكنّه كلّما تذكّر ما رآه عند الجبل، تكدَّرت مشاعره كسماءٍ تلبّدت بالغيوم.

ظلَّ يقارن بين المشهدين، كان محتارًا أهي قديسةٌ ما، أم ماكرةٌ تعبث بالرجال؟

«كيف يُعقلُ أن تنطق بما نطقت به وتتحدث بلسان السماء إن كانت غير نقيةٍ؟ ولكنْ، أليس من حقها حتى لو كانت نقيةً أنْ تُحِبَّ؟ لا، لا! النقية لا تحبُّ شابًّا كهذا، لو كانت نقيةً لعرفت أنّه خبيثٌ، لقد رأيتُ نظرته لها حين ذهبت.»

حاول أن يهدِّئ نفسه، بألّا علاقة له بما يجري، فهي قبل كل شيءٍ لا تخُصُّه في شيءٍ، ليست أخته أو ابنته أو حتى حبيبته.

كان يذرعُ الغرفة بمشْيٍ محموم والأفكار تعزف لحنًا ناشزًا في رأسه، كلُّ صوتٍ، كلُّ فكرةٍ لَحْنٌ يفسد الآخر.

توقف فجأة، لسؤال مفاجئٍ خطر له: «هل تُحبّها وتغارُ عليها؟»

أقلقه جدًا السؤال، وضع يده على جبينه وتسارعت دقّات قلبه.

جلس على كرسيه ليهدأ قليلاً، كان مستعدًّا لمواجهة السؤال.

فكر بهدوءٍ مرّة أخرى: «هل تُحبّها وتغارُ عليها؟» راقب مشاعره وهو يسأل نفسه، ثم تنفَّس بارتياحٍ.

«لا، لست لها مُحبًّا ولا أغارُ عليها! يا لها من فكرةٍ سخيفةٍ. إذن ما الذي يجري؟»

لم ينتظرْ طويلاً، وقف وقد عزم أمره على الذهاب لرؤيتها بحجة زيارة والدها المريض، لم يكن يرغب في الحديث معها هذه المرة، لكنه يعلم أنّ أسهل طريقةٍ لفهم سبب قلقه وانزعاجه واهتمامه هو رؤيتها، يمكنه حين يراها ويراقبها أنْ يفسِّر مشاعره بشكل أفضل، ليفهم أكثر. كما أنّ السير سيمنحه الهدوء والتركيز اللازميْن لفهم أوضح.

منذ مدةٍ طويلةٍ اعتاد على مواجهة مشاعره وأفكاره، لقد تعلّم دروسًا قاسيةً من تلك الفترة التي اشتغل فيها خادمًا، لو أنّه وقتها سأل نفسه سؤالاً واحدًا فقط، سؤالٌ واحدٌ فقط كان سيغير كل شيء! «هل أنتَ راضٍ بما يجري؟ هل تريد ذلك حقًا؟» لكنّه كان مسلوب الإرادة، تعوّد على الطاعة، فلم يجرؤ على التفكير فيما يُطلَب منه.

لكنّه بعد مدةٍ طويلةٍ، عوّد نفسه على فهم ذاته ورغباته. لقد شعر بقلقٍ وجوديٍّ شديدٍ حينما استقر في هذه القرية، بدأ رُويدًا رُويدًا يفهم ذاتَه، لقد أصبحت له مرآةٌ من نفسه لأوّل مرةٍ في حياته، مرآةٌ صقيلةٌ، تكشف له عن عيوبه ومزاياه. ما زال يعاني من هذا القلق الوجودي في فهم الذات، لم يصل بعدُ لمرحلة إثبات الذات، لكنّه

على الأقل يواجه نفسه ويحاول أن يحبها.
كانت زيارته تلك محاولةً لفهم أسباب اضطرابه وانشغاله بتلك الفتاة.
«كيف استطاعت هذه الفتاة أنْ تقنعني بنقائها وأنا الذي وطّنت نفسي على الحذر من معشر النساء حدّ التوجُّس وسوء الظن؟»
«لا شكّ أنّ لها أثرًا كبيرًا في نفسي، لقد استطاعت أن تأخذ بيدي نحو مكاشفاتٍ روحيّةٍ لم تخطر ببالي. تلك السيدة جعلتني أكفر بنساءٍ طاهراتٍ، وهذه الفتاة استطاعت بكلِّ بساطةٍ أنْ تعيد لي إيماني بهنّ كشقائقٍ للروح وجديراتٍ بالثقة، وأهلٍ لاستقبال عطايا الربّ وتجلّياته.
كيف يمكن؟ أحتاج فقط لكلمةٍ منها لأحافظ على هذا الإيمان. إنّه إيمانٌ حلوٌ مريحٌ، لا أريد فقدانه. أحتاج إليها لأسامح الماضي البعيد.»
توقّف في منتصف الطريق منتبهًا بعدما كان غارقًا في أفكاره. إذن هذا هو سبب اضطرابي! حاجتي لها كنموذجٍ يدفعُني لأسامح تلك المرأة أو لأخفّف حقدي على معشر النساء. إنّها مُهمّةٌ لي كي أتصالح معهن، على المستوى الإنساني على الأقل.
وصل إلى باب بيتها، كان الليل قد أحاط بفينوس، تمنّى أن تفتح هي الباب، لأنّ وقْعَ ذلك في نفسه سيكشف له الكثير، وسيجعله

يحكم جيدًا عليها، فالنظرةُ الأولى عنده ذاتُ قيمةٍ في الحُكْم بعدما خَبُرَ كثيرًا من الناس. تهيّأ لطرق الباب، لكنّ أخاها فتح البابَ فجأةً فصادفه في وجهه، نظر إليه نظرةً عابرةً، نادى أُمّه لتستقبل الراهب، ومضى خارجًا.

أحسّ بخيبةٍ، لكنّه لم يفقد الأمل.

أقبلت الزوجة سعيدةً بمَقْدَمه، دَلَفَ الباب، وقادته إلى غرفة زوجها مباشرةً، حاول النَّظر بأُذنيه عوضًا عن عينيه ليتحسّس أيَّ حركةٍ تَبْدُر تُخْبره عن مكان الصَّبيّة أو أمله في رؤيتها.

لا شيء! البيت هادئٌ جدًا.

لم يَدْرِ ما سيفعله، كان يعلم أنّ حالة الرجل سيئةٌ جدًا، وأنّ الأطباء قبلَه أعلنوا يأسهم. كان يعلم أنّ مجهودَه ليس أكثرَ من مُسَكّنٍ، أو في أفضل حال علاجٌ للروح المُنهكة المُحتاجة لبعض السلام الداخليّ أو القوّة، ليواجه الجسدُ المنهكُ المرضَ بشجاعةٍ.

فحص الرجلَ بعدما قرأ فوق رأسه بعض الصلوات، ظهرُه مُتَقَرِّحٌ. سألها:

- متى قَلَبْتُم ظَهْرَه آخر مرة؟ متى زاره الطبيب آخر مرةٍ؟

- قبل أسبوعين. (أجابته ثم اختنق صوتها بالدموع، غطّت وجهها بمنديلها، ثم مسحت به دموعها وقالت:

- الطبيب أكدّ أنّه سيتحسن. (ثم خرجَتْ.)

تَبعَها، لأنّه يعرِفُ جيّدًا حالة المريض، ويدركُ من خلال تجاربه أنّها تقول ذلك لرفع معنويات زوجها.

قالت له بيأسٍ وهي تبتسم وسط الدموع:

- الطبيب قال إنّه لن يعود، فحالة زوجي لا علاج لها، نصحني بأنْ أصبر وأهتمّ بمأكله ونظافته الشخصية إنْ أردتُ له أن يعيش فترةً أطولَ.

نظرت إلى عينيّ الراهب مباشرة، وسألته بحيرةٍ واستجداءٍ:

- هل يمكن أن يعيش الإنسان أكثر لو زاد الاهتمام بصحته؟

كان صوتها ممزوجًا بالاستجداء والشك.

أطـرقَ، ولم يُجبْها، كان رُغم كلِّ شيءٍ مشغولاً بذاته وتساؤلاته الشخصية، لم يكن سؤالُها الآن ليشغل تفكيره، طلب منها أنْ تَدَعَ أولادَها يجهزوا الماء الساخن، بينما يقوم معها بتقليب الزوج على بطنه.

قالت سريعًا:

- سأجهّز أنا الماء ثم أتبعك، فولدي خرج كما رأيتْ، وابنتي ذهبتْ لتساعد جارتنا التي وضعت ولدها قبل أربعة أيام، لكنّها تأخرتْ.

تفتّحتْ كلُّ حواسه، كان يسمع عبارتها الأخيرة حول الفتاة بكل ما أوتي من بياض الاستيعاب.

هزّ رأسه، وتوجّه نحو غرفة الزوج، ريثما تُحضِر الماء الساخن لينظّفا جسده معًا.

مرّ الوقت ولم تَعُد الفتاة للبيت، كان يَتَخلَّق ذرائعَ جديدةً للبقاء، حتى هَمَّ بأن يساعد الأم في تنظيف البيت، لم يكن بالنسبة له أمرًا غريبًا، فمنذ كان خادمًا لم يتخلَّ عن هذه العادة، لكنه خاف أن تَسْتهجِن موقفه، أو أن تشكّ في سلامة ذكورته. استنفد كلَّ الذرائع، فحيّاهم وخرج.

صحِبته أمام الباب، فتح الباب وطلب منها العودة بجانب زوجها وأوصاها بالصبر. ما إنْ مشى قليلاً وهي تُصرُّ على توديعه مُعتذرةً بسوء الإضاءة الليليّة أمام البيت، حتى سمع صوت أنينٍ ممزوجٍ بانتحابٍ مكتومٍ. نظر إلى الأمّ، وتلفتَّ حوله محاولاً اصطيادَ مصدرِ الصوت، بقيت الأمّ مكانها، مشدودةً بفضول الإناث، وقد انفتحت شهيّتُها لقصةٍ دَسِمةٍ ترويها غدًا للجارات، مشى الراهب مُرتابًا يهمس: «مَنْ هناك؟»

كان صوتًا أقرب للأنثويّ، لكنّه صار أضعف، لم يَعُدْ يسمعُ سوى أنفاسٍ متلاحقةٍ. «إنّها خائفةٌ» قال لنفسه.

بات قريبًا جدًا، فأنفاسُها تتلاحق، ونحيبُها الموجوع صار أكثر وضوحًا رغم كتمانه، كان يَتَخيّلُها، فتاةً مُتكوِّرةً على نفسها، ترتجفُ ودموعُها المالحةُ تختلط بسيلانِ أنفها.

ارتعش لهذا الخيال، كان يشعرُ بالشفقة عليها، وقف عند صخرةٍ

صغيرةٍ، فلمْ يسمع شيئًا، لا شك أنّه قريبٌ جدًا، وأنّها شعرت به فحبَستْ أنفاسها. استدار حول الصخرة، نظر في الظلام الذي يغمُر أسفل الصخرة، لاحظ شيئًا أسودَ، ينكمشُ في وضعِيّة الجنين حينما انحنى بهدوءٍ فوقه، ثم قَرْفَصَ أمامها. كانت فتاةً تُخفي وجهها.

رفعت الأم رأسها ووقفت على أطراف أصابعها مستشرفةً ما خفي عنها. همّتْ بأن تقترب، لكنها خافت من الراهب الذي أمرها بالبقاء مكانَها لو احتاجها، ففضّلت إرهاف السمع من مكانها.

«بُنيّتي، لا تخافي، أخبريني ما بك؟» همس لها، وهو يحاول تهدِئة روْعها، لاحظ أنّ رجفةً قويةً اعترَتْها حين سمعت صوته، مدّ يده يريد لَمْس كتفها، لكنّه تراجع لأنّه ما زال لا يجرؤ على لمسِ امرأةٍ، حتى المريضات منهنّ سوى العجائزِ اللاتي يُذَكِّرْنه بجدّته قديمًا.

بقيتْ صامتةً، بأيِّ شيءٍ ستنطق وروحُها التي تتحدث بها ذابلةٌ؟

وقعَ طرفُ ثوبها عن كتفها حين انكمشت أخيرًا، فبان كتفها، لم يزعجْه المنظر لكنّه ارتدّ إلى الخلف فزِعًا، كتفُها استحال إلى لوحةٍ بدائيةٍ من دمٍ محبوسٍ بفعل الكدمات، ودمٍ نازفٍ بفعل الخَرْمَشات.

لم يستطِع الاقترابَ ثانيةً، نادى الزوجةَ لتكُلّمَ الفتاة وتعرفَ مَنْ تكون.

هروَلَت الزوجة مسرعةً، فقد اكتفت من الانتظار والفضول، كانت عنيفةً كفايةً وقليلةَ صبرٍ كفايةً لتقلِب الفتاة بقوةٍ وتكشف عن وجهها، كانت تستعجل لذةَ الفضيحة، فملابسُ الفتاة وإحساسُ المرأة أخبراها أنّ في القصة فضيحةً ما.

لكنها حين رأت وجه الفتاة، شهقت شهقةً، ثم صرخت، ولطمت.

كان الراهب يراقب كل ذلك بذهولٍ تامٍّ جمّد حتى عينيه فلم ترمِشا أو تدمعا.

قامت الزوجة، وصرخت في الفتاة أن تقف على قدميها، لكن الفتاة الفزِعة لم تتحرك وذرفت دموعًا صامتةً، فشدّتها الأمُّ من شعرها، وجرَّتها إلى البيت.

تردَّد الراهب، هل يتبعها أم يولّي هاربًا. لكنّ أسباب بقائه كانت أقوى، لم ينسَ السبب الذي دفعه للزيارة، وكان يريد أنْ يفهم ما الذي يجري، كما أنّ خوفه من صدمة الأم وغضبها أشعره بضرورة التواجد بينهما الآن.

هرول نحو البيت وقد اتخذ قراره إثر سماعه الصراخ، كاد يتعثّر بثوبه، كان الباب مفتوحًا، اقتحمه بقوةٍ، كانت ملقاةً على الأرض صامتةً لا تبكي، وأمّها تضربها بكلِّ ما أُتيح لها من قوةٍ في يديْها ورجليْها.

اندفع نحوها، وحال بينهما، رفع الفتاة عن الأرض.

جلست الأمُّ تندُب حظّها وتبكي، ثم قامت مرةً أخرى تريد ضربها وتصرخ: « أريد أن أعرف الآن ماذا جرى!»

هدَّأها قليلاً، وطلب من الفتاة أن تدخل غرفتها، ساعدها لتقوم، كانت غيرَ قادرةٍ على الوقوف، وغيرَ متوازنة الجسد، كادت تقع أرضًا، فامسك بيدها وقادها إلى غرفتها وأغلق الباب.

جلس بجانب الأم، صامتًا، ثم حاول تهدئتَها ثانيةً، وهي لا تَنِي تهزّ جسدها كأنها تضرب نفسها بحائطٍ وهميٍّ.

لم يكن الراهب قد فهم الأمر كما فهمته، فقدّم لها بعض النصائح والمواعظ، وطلب منها أن يُكلّمَ الفتاة وحده.

علا صوتُ الأب ينادي، يسأل عمّا جرى وما سبب الصراخ، أرادت الأم أن تقوم لتخبرَه وتشكوَ له المصيبة. لكنّ الراهب منعها، محذّرًا إيّاها من أثر أيِّ كلام على صحة زوجها، فقامت وقد سوّتْ طَرْحة رأسها، وقالت لِزوجها: «لا شيء سوى أنّ زوجة جارنا ماتت! وهم يصرخون.» ثم خرجت.

جلست على كرسيٍّ، وطلب منها الراهب أن يدخل غرفة الفتاة ليسألها عما جرى.

لكنها وَلْوَلَتْ: «ماذا ستفهم؟ ماذا ستقول لك؟ يا للفضيحة!» ولطمَت خديْها، ثم ضربت على فخذيْها، وظلت تردد: «يا للفضيحة!»

انسحب بصمتٍ نحو غرفة الفتاة. طرق الباب المغلق خفيفًا، ونادى: «يا بُنيّتي، هل يمكنني الدخول؟»

سمع صوتًا ضعيفًا من الداخل، لم يكن واضحًا، فطرق الباب ثانية، وقال: «سأفتح الباب الآن.»

انتظر لحظاتٍ، ثم فتح الباب، ودخل وتركه خلفه شبه مفتوحٍ.

كانت تجلس على طرف السرير، تمسك به بكلتا يديْها، وعيونُها معلّقةٌ بأرضيّة الغرفة. شعر بارتياحٍ أكبرَ لأنّها غيّرت ملابسها المُمزقة.

ظلّ صامتًا، حين جلس بجانبها وعقد يديه أمامه، وركّز بصره على كلتا يديه كأنما يتأكد أنّه أحسَنَ شَبْكَ أصابعه معًا.

لم يدْرِ ما يقول وكيف يحدِّثها، كان مرتبكًا أكثر منها، ها قد انهار كلُّ معنًى للزيارة، وها هي الظروف تحول بينه وبين ما جاء ليجد فيه إيمانه وذاته.

هل انمحت كلُّ تلك الرسائل الجميلة التي همس له بها الربُّ على لسان هذه الفتاة؟ هل تحطم إيمانه الجديد قبل أن يولد؟

هزّ رأسه نافيًا، طاردًا تلك الأفكار، محدّثًا نفسه بأنّه لا زال لا يعرف ما جرى، فكلُّ ما يفكر فيه تابعٌ لردّة فِعل الأم التي...

انقطعت أفكاره حينما رآها تجثو على ركبتيْها أمامه، وتلهثُ بكلامٍ غيرِ مفهومٍ. نظر إليها طويلاً، أمسكتْ طرف ثوبه وهي ترجوه أن يُصدِّقها.

انتبه ساعتها، هي تريد أن تُخبِره بما جرى، طلب منها أن تجلس بجانبه واعِدًا إيّاها بأن يستمع بعقلٍ مفتوح وقلبٍ مُصدِّق.
بقيت جاثيةً أمامه، أخذت نفسًا عميقًا، مُحاوِلةً أن تتخلّص من تَلَعثُمها واختناقِ صوتها. ثم قالت له:
« أبَتِ! لستُ سيّئةً، أُقسِمُ على ذلك، لم أفعل شيئًا، لم أقصد ذلك ولا طلبتُه، أنا لستُ سيّئةً، ولم أقصد جلب الفضيحة لأهلي.
هو اعترض طريقي، رَجوْتُه ألّا يفعل، لكنه قال لي: «مَنْ يُعانِدْني يندمْ!»
بقي صامتًا، لم يُعلِّق، كان يستمع فقط ويحاول أن يستوعب الموقف. إذن، صحيحٌ أنّ الأمر متعلقٌ بفضيحةٍ، شعر بالبرد الداخليّ، فانصبَّ شعوره عليها رصاصًا مِنْ عينيْه، ثم أشاح طرفه عنها، شفقةً عليها أو عليه.
سأل نفسه: «لماذا لا أتعاطف معها؟»
قالت بصوتٍ مُرتجِفٍ:
– أنتَ لا تُصدِّقُني! وعدتَ أن تُصدّقني يا أبتِ.
– إن كنتِ تريدين أن أصدِّقك فقولي الحقيقة كما جرت دون أن تُدافعي عن نفسِك.
«ما مِنْ أُنثى أهلاً للتعاطف والتصديق، كلُّهنَّ سواء.» قال لنفسه.
– حسنًا يا أبتِ، سأخبرك بما جرى كلَّه.

هزّ رأسه موافقًا، وأنصت.

– لقد قابلني في الجبل، صديقُ أخي، لكنّي صددْتُه.

هزّ رأسه وقال لنفسه: «الجبلُ، مثلُ جبل (ماكسويل)، تكادُ الجبال تَخِرُّ لفرْط ما تشهد، لقد رأيتُكما معًا، كنتِ هادئةً، لم أرَ عليك آثارَ غضبٍ وصدودٍ.»

– أبتِ! هل تسمعُني؟

تنهّد: «نعم، أكمِلي.»

سألته برجاءٍ: «هل تُصدِّقُني؟»

– حين أسمعُ القصة كاملةً، أخبرُك.

– الليلة ذهبتُ لأساعد جارتي التي أنجبتْ قبل يومين، اسألْ أمي، جارتي طلبت المساعدة، في الطريق لقِيتُه، فهربتُ سريعًا إلى بيت الجارة، ظننته رحل، لأني مكثت طويلاً عند جارتنا، في طريق العودة، سحبني خلف الصخرة، وكان ما كان.»

– ماذا كان؟

تردّدت كثيرًا قبل أن تهمس له بخجل: «لقد اغتصبني.»

تقلّصت عضلات وجهه، وبلع ريقه.

– وأنتِ؟ ألم تكوني تتمنّيْن أن يفعل ذلك؟ ألمْ تحاولي التعرُّض له وإغواءه؟»

بكتْ بحُرقةٍ، وغطّت وجهها، وهتفت بحرارة:
- كلا يا أبتِ، لستُ كذلك، حتى خيالي بقي نظيفًا من كلَّ فكرةٍ كتلك.
- لا بد أن نسمعه لنعرف الحقيقة.
ثم تركها تبكي، وخرج.
بقي جالسًا بجانب الأم، لا يدري في جِلسة العزاء تلك، مَنْ احتاج للعزاء أكثر.
أيُّنا مصيبته أكبر؟ البنت خسرت السمعة والثقة، الأم خسرت سمعةً وراحةَ بال، أمّا أنا فخسرت كلَّ شيءٍ، منذُ زمنٍ بعيدٍ خسرت السمعة، والثّقة المتبادلة، والإيمان، وحين بدأتُ أفهم ذاتي أخيرًا وأكسبُها، خسرت حتى ذلك. لم يبقَ لي شيءٌ يستحق أن أبحث عنه وأثبته.
استمرّ الأمر على حاله، كأنّ الزمن توقّف عند تلك اللحظة، وكأنّ الجليد يغطّي المكان، فلا حركةً ولا حرارةً ولا أدنى شعورٍ.
عندما غَرَبت الشمس وبدأت بالظهور على الكوكب فينوس، قام الراهب، مُخبرًا الأم بإيجازٍ بما جرى حسبما ذكرت الابنة، طلب منها أن تبقى هادئةً حتى يرى الشاب ويحدِّثه، كما نبّهها إلى أنّ طرفًا ثالثًا يجب ألّا يعرف شيئًا، واعدًا بأنْ يعودَ سريعًا.

لم تحاول الأم الاطمئنان على ابنتها، تحرّكت بتثاقُلٍ لتجيب نداء الأب. ثم عادت مكانها، فارغًا فؤادُها.

مرّ الوقت بطيئًا، ولكنْ ما إنْ ملأ الضوء المكان حتى توافدت الجارات الفضوليّات.

كان قلبها يخفق بشدةٍ، وشاحبةً، حينما حاولت أنْ تسكت فضولهن بكذبةٍ واحدةٍ مكررةٍ تحاول ألّا تخطئ في تفاصيلها، لأنّها تعلم أنهنّ سيجتمعن ويتناقلن الخبر.

«سمعتُ البارحة صراخًا، ورأيت الراهب طوال الليل عندكم، ما القصة؟ هل زوجك بخير؟»

« زوجي كان قد غاب عن الوعي، وابنتي التي كانت عند جارتنا ظنّت أنّه مات في غيابها فركضتْ ووقعتْ خلف الصخرة مُغمًى عليها، بقي الراهب طوال الليل ليطمئن عليهما معًا.»

كانت هذه الكذبة التي جَادَ بها خيالُها، لم تستطعْ أكثر من ذلك. فأفكارُها معطلةٌ، الخوفُ الشديدُ يشُلُّ الحركة والفكر أكثر من الغضب في الحقيقة.

كانت الأم كَمَنْ رُبِط إلى شجرة، والكون ينهار أمامها، لا تعرف كيف تتصرف. الراهب لم يعدْ، مضت ثلاثة أيام والراهب لا يعود، والجارات بدأت شهيّة خيالهنّ المريض تثير كلَّ الشكوك

الممكنة، لم تتوقف الأسئلة الفضوليّة، ولا سكنت العيون التي تراقب، فحَدْسُ النساء قلّما يخطئ، وأنوفهنّ كالكلاب البوليسية تَشُمُّ رائحة الفضيحة عن بُعدٍ.

لكنّ القبورَ لا تُنبِئ عن حال ساكنيها، كذلك كان البيت ساكنًا، كحائط صَدٍّ أمام ركلات الأسئلة الترجيحيّة.

كانت الفتاة لا تخرج من غرفتها إلا لقضاء الحاجة، نادرًا ما تأكل، فقدتْ الوعي عدّة مراتٍ في غرفتها، مرةً فقدتْ وعيها أمام أمها، أسرعت الأم لترفعها، حين أفاقت نظرتْ إلى أمها ترجوها، لكنّ قسوة ملامح الأم، وشفتيها المَزْمومَتيْن إضرابًا عن الكلام، قطعتا الرجاء، فعادت إلى غرفتها بخليطٍ من اليأس والخذلان والصدمة، كان الطعم المُرُّ في حلقها يطغى على كلِّ شيءٍ آخر، حتى ملوحة الدموع.

****

كان ليلاً لا نهارَ له، وظلامًا لا يتخلله نور، هكذا شعر الراهب، بحث عن الشاب طوال الأيام الفائتة فلم يجدْه، خطر له أنْ يبحث عن أخيها لعلّه يَجِدُهما معًا، ذهب سريعًا لرؤية الأم علّها ترشده إلى ابنها، لكنّها لا تعرف شيئًا، فقد اعتاد ابنها الاختفاء لأيامٍ طويلةٍ دون خبر.

مَرّت الأيام ثقيلةً على الجميع.

كان الراهب يشعر بضياعٍ لا نهاية له. عقله يطالبه بأنْ يقف إلى جانبها فيفعل بالبحث عنه، وقلبه مثقلٌ بالذكريات فيُثقِله عن البحث. كان أشبه بصنم، الكلُّ يستمدّ منه البركة، وهو فارغٌ عاجزٌ عن نَفْعِ نفسه لو مَرّ به طائرٌ يلقي قاذوراتِه ويرحل. كلُّهم يلقون همومهم عنده ويرحلون، ويزداد هو تلوثًا. هذه المرة كانت الأقسى، هذه المرّة كسرته الريح.

قال لنفسه:

«كلّما تذكرّتَ ما فعلته بك سيّدة البيت وخداعها لك، لم يعُد في قلبك رحمةٌ، لا أنسى حين قالت لي (مَنْ يُعانِدُني يندمْ)، ألهذا الحدّ حادثة الاغتصاب تلك دمّرتك فلم تعد..»

أحسّ بلجام عقليٍّ يشدُّ مخّه ويوقف حصان التفكير الجامح، كأنّه يرى نفسه لأوّل مرةٍ، ويسمع قصته لأوّل مرةٍ.

«هل قلتُ: اغتصاب؟ هل كنتُ أنا!! ضحيّة اغتصابٍ؟ هل خدعَتْني؟ أنا المخدوع أعلاه؟ وفي كل مكان؟ ومرّتيْن؟ كلا! هذه المرّة لن أُخدع، ألم تتعرض الفتاة لاغتصاب مثلي؟ ألم تُخدع مثلي؟ ألمْ يَقُلْ لها مثلما قيل لي (مَنْ يُعانِدُني يندمْ)؟ إلهي!

ثم خرّ أرضًا كأنّه جنين واقعٌ من بطن الحقيقة.

«ألستُ أولى الناس بتصديق الفتاة؟ وأنا المصلوب على خشب

الشهوات؟»

لَمْلَمَ روحه المبعثرة، وأجمع أمره في ثنايا ثوبه، وخرج يبحث عن الشاب لا يلوي على شيءٍ.

****

مرّت عشَرةُ أيام كاملةٌ بطيئةٌ، الفتاة لا تبرح غرفتها إلا قليلاً، والأم تقوم بأعمال البيت والحقل بتثاقُلٍ، متغافلةً نظرات الجارات، ولأنها تقوم بعملها بشكلٍ آليٍّ، نسيت كلَّ ما يتعلق بالجدّة، لم تكنْ تعلمُ أنّ الجدّة قد ماتت. الوحيدة التي عرفت هي الفتاة، تلك الليلة حلمت بجدتها تبتسم لها وترحل، استيقظت، كادتْ تركضُ نحو أُمِّها لتُخبرها، لكنّها تعرفُ أنّ الأم تُقاطِعها. صباحًا، رغبتْ بأنْ تُخبر أُمّها، لكنها أشاحتْ بوجهها عنها. بكت يومها بشدةٍ، فجدَّتُها الوحيدة التي أحبّت أن تبوح لها، وتعلم أنّها ستصدِّقها. بكت فَرَقًا على الجسد المنسيّ.

كانت رغم نَزْف روحها، لا زالت تصلي، وتشعر أنّ طيفًا من نورٍ يزورُها في منامها ليقف عند رأسها يُربِّت على روحها. لم تفقد إيمانها بالربّ لحظةً، كانت على يقينٍ أنّ الربَّ يُدبِّر لها خيرًا في الخفاء.

أمّا الراهبُ فروحٌ محبوسةٌ في جسدٍ، وجسدٌ محبوسٌ في الماضي، وماضٍ محبوسٌ في الذاكرة.

لم يفقد إيمانه، فهذه ليست خطيرةً، لكنّه فقد القدرة على الإيمان من جديدٍ، كان يُحِسُّ بضياعٍ كاملٍ.

لم تكنْ صدفةً أنْ رأى الشابّيْن على ظهرِ الخيل يعودان مع اشتداد النهار، كان قليل الخروج، يراقب الطريق طوال الوقت.

خرج من بيته مسرعًا، كان منظرُه غريبًا للناس، شعرُه الطويلُ الأشعثُ، وملابسُه المُجعّدة، وأظفارُه التي طالت، لحيتُه التي غطّت وجهه، كلُّ ذلك بثّ الخوف في قلب من رآه وعرفه، مع أنّ أغلب الناس لم تميّزه إلا من زيِّ الراهب.

أراد أنْ يُسرع لرؤية الشاب والحديث معه، لكنّه فكر بطريقةٍ أخرى، لا يعرف كيف تحرك تفكيرُه أخيرًا، فذهب إلى بيت الفتاة، كان خائفًا من أخيها أنْ يلحظ شيئًا، أو من أمها أنْ تبوح بشيءٍ فيَفسُد الأمر كلُّه.

وصل البيت، كان كلُّ شيءٍ ساكنًا، سأل الأم، فأخبرته أنّ ابنها جاء ونام مباشرةً. هو لا يعرف شيئًا.

شعر بارتياحٍ، وخرج متجاهلاً كلامها، دون أن يشرح لها شيئًا.

ذهب يمشي في الطرقات هائمًا على وجهه، لا يدري أين يجدُه، كان خائفًا ألّا يعثر عليه في بيته، بل كان لا يعرف أين يسكن فعلاً، كان حذرًا في السؤال عن بيت أهله، متذرِّعًا بحاجته لتقديم النُّصح

للابن، بعد شكوى الأب الكثيرة منه. لم يُقنع ذلك أحدٌ، خاصّة الذين يعرفون الأب ولا مبالاتِه بما يفعله ابنه.

وصل البيت، نادى الابن، أخبره بما ذكرته الفتاة وطلب منه أنْ يعترف بالحقيقة.

نظر إليه الشاب بقرفٍ واستهجانٍ، مَصَّ شفتيه، وأدار عينيه في السماء، كأنّه لم يسمع. لكنّ الراهب الغاضب، شدّه من يده وطلب منه اعترافًا صريحًا بما جرى، مع وعدٍ بكتمان الأمر. كان ضَعفُ الراهب وانهيارُه النفسيّ قد لفتا نظر الشاب، فسأله:

- لماذا لن تخبر أحدًا؟ وما قيمة الأمر عندك؟

- الأمر يهمّني شخصيًّا، هذه الفتاة أريدها أن تذهب لخدمة الرب لاحقًا، وما ستقوله سيدفعني لاتخاذ قراري.

بدا الشاب لأول مرّةٍ مهتمًا بما يسمعه، لم يُخفّف من حيرة الراهب بأيّة إجابةٍ، بل طرح مزيدًا من الأسئلة:

- هل تقصد إذا كانت فتاةً صالحةً، سترسلها من هنا لخدمة الربِّ في المدينة حيث الكنائس الكبيرة؟

قال الشاب بخبثٍ وعيونه تلمع.

ضاق الراهب ذرعًا، قال بنفاد صبر:

- نعم.

حرّك الشاب رأسه سعيدًا، وقال: «حسنًا، يمكنك أن تعتبرها كذلك، ما دمتَ قد وعدت بكتمان الأمر. لكنْ لو حاول أحدٌ مراجعتي في الأمر فسأُنكر كلّ شيءٍ وسأفضحها.»

ثم قرّب وجهه من الراهب وقال كأنّه ينفخُ دخانًا: «أَفضحُها ولا أبالي.»

ثم ذهب يمشي بتَسكُّعٍ ويُصفِّر.

خطف الراهب تصريحات الشاب، كمن يخطِف شعلةً من نار، كان يكرر المحادثة كمُمثّلٍ يحاول أنْ يَحفظَ دَوْرَه.

ركض نحو بيت الفتاة، يُسابِق ظِلّه، كأنّ معجزةً حصلت معه، كأنّ نار الحياة خرجت من جليد الموت. كان يهنّئ نفسه بحديثه عن إرسالها إلى الكنيسة البعيدة لتتعلم دينها أكثر، كان يريد أن يوصِل للشاب شعورًا بأنّ براءتها لصالحه، وأنّ ابتعادها يريحه من ثقل أيَّة مسؤوليةٍ. كان فخورًا بنفسه. متلهّفًا لرؤيتها، ورؤية وجهها مشرقًا من جديدٍ.

اقترب من البيت، كان جمعٌ كبيرٌ من الناس، من نساءٍ وأطفالٍ ورجالٍ وشيوخٍ، يصيحون، أو يبكون، اقتحم الجمع المحتشد أمام البيت، كانَ بعضهم ثقيل الحركة، شعر بقلقٍ.

اخترق الجموع بصعوبةٍ، مُستخدمًا كلتا يديه، وكلَّ طاقته كيلا يؤذي أحدًا وهو يدفعهم من طريقه.

شاهد أمام البيت، ما صدم الجميع، كانت الفتاة غارقةً في الدم،

وأخوها يمسك سِكّينه ويبتسم بفخرٍ، كانت الأم بجانب ابنتها تحضنها مرةً، وتُبعِدها أخرى، كأنها تُصارع قسوة الفَقْد، بقسوة الفضيحة.

جثم أمام الفتاة، هزّها، لكنّها بلا حركة، كانت ميتةً، تبتسم وهي مذبوحةٌ. دمعتْ عيونه، نظر حوله، تساءلت عيونه حين التقت بعيون الأم.

أخفضت رأسها، وقالت بصوت المعتذر عن عاره: «ليست عذراء!»

أغمض عينيه للفاجعة. نظر إلى القديسة الذبيحة ثانيةً.

قال للأم بصوتٍ يائسٍ:

- كانت بريئةً، لقد اغتصبها، لماذا قتلتموها؟

نظرت إلى ابنها بطرف عينها بخوفٍ، وقالت:

- لقد عرف، الكلُّ عرف، داخت، أحضرنا الطبيب، قال إنّها تنزف بسبب فضٍّ بكارتها، الجارة كانت عندنا، لم يسمع أخوها المزيد، ولم يحتمل الأمر.

- وأنت؟! (قال لائمًا.)

- الفضيحة يا أبت، لا يغسلها إلا الدم.إنّه عارٌ كبيرٌ.

لم يصدّق ما سمعه، أم تقتل ابنتها لتبرّئ نفسها!

- وزوجك؟

كأنّها انتبهت، قامتْ تركض إلى الداخل، لم تلبثْ أنْ خرجتْ

تُوَلِول من جديدٍ، لقد مات الأب!
صرخ الابن حين سمع الخبر في الجمع، طالبًا منهم الانصراف.
أمّا الراهب فبقي مكانه، قال للابن: «يجب أن ندفنها.»
نظر إليه الابن وقال متعاليًا فخورًا: «أبي أولى بالدفن الآن، لتنتظرْ قليلاً، أو لتفعل ذلك لو شئت وحدك.»
حملها وسار بها عبر طُرُقات القرية، كان دمها يفيض على ملابسه، كم هي كريمةٌ! قال لنفسه، غسلت روحي حيّةً، ودمها غسل جسدي ميتةً.
لم يهتم للنظرات الفضوليّة من شقوق النوافذ، وثقوب الأبواب، لم يَعُدْ مُهمًّا أنْ يعلن براءتها الأكيدة.
البريء دمه يدافع عنه دومًا، وقتلى العار لا يذنبون.
كم نحن أنانيون! هتف لنفسه، كلٌّ مِنّا قتلها بطريقته، وكلٌّ مِنّا أخذ منها ما يريده، كُلُّنا تسلقنا جدران روحها لنتطهّر قليلاً، إمّا بدعوى الكرامة حين اغتُصبت، وإمّا بدعوى الشرف حين قُتلت، وإمّا بدعوى البحث عن الحقيقة حين كُذّبت، وإمّا بدعوى تبرئة الذات حين أنقذتُ جسدها من العراء.
وصل بها إلى السهول الفسيحة، مدّدها على الأرض، تأمّلها، كانت لا تزال تبتسم كملاكٍ يحِنُّ إلى أصله السماويّ.

حينما رفض أن يُصدِّقها، كان يرفض أن يُصدَّق نفسه هو، لم يصدِّقها لأنّه لم يكن مؤهلاً لذلك.

سأل نفسه: ماذا لو كانت مذنبةً فعلاً؟ هل كانت تستحق ما فعلناه بها؟ ألم أفعل ما هو أشدُّ جُرمًا منها؟ مَنْ يضمن أنّ أخاها لم يكن يفعل فِعْلَ صديقه في مكانٍ آخر مع فتاةٍ أخرى؟

هذه الفتاة تُدين جُبننا وخُبثنا ونِفاقنا، حتى لو لم تكن طاهرةً تمامًا.

جميعُنا أراد أن تموت، لأنّها تُذكِّرنا بخطايانا، لأنها تبتسم لقُبحنا وتتقبل ذنوبنا، تُضايقنا منها فقتلناها، أو رفضنا تصديقها.

الآن فهمت ما قالته لي مرةً، حين عاتبتُها وهي تعطف على امرأةٍ سيّئة السمعة في الطريق، قالت:

«يا أبتِ، كلٌ يرى بعين عقله، وبعين قلبه، ما من شيءٍ يؤثّر فيك إلا بقدر استعدادك النفسيّ له.

حين أعطِف على تلك المرأة فأنا أعطِف على روحها، وما تفعلُه أو ما فَعَلَتْه أمرٌ يهمُّها ولا يضرني، إلا بقدر استعدادي لتقبُّله.»

لقد فهمتُ الآن يا ابنتي، لقد فهمت.

صرخ نحو السماء قائلاً: «رُحماك يا ربِّ، بروح هذه القديسة، لقد فهمتُ يا ربِّ، لقد فهمتُ رسائِلَك كلَّها.»

الفصل الثاني
"خُطَّةُ الرَّبِّ"

«لو عاد بكَ الزَّمنُ إلى الوراءِ سَترتكِبُ الأخطاءَ ذاتَهَا، إنّها ليسَتْ أَخطاءً، إنّها مُكوّناتُ حياتِك!»

يومُ الحِسابِ، أرضٌ مُنبسِطةٌ واسِعةٌ:

كان ياما كان، وليس بالإمكان أفضلُ ممّا كان...

خَلْقٌ كثيرٌ مِن كلِّ شكلٍ ولونٍ، يهربون ولا مخرجَ، كأنّهم نملٌ يَشُمُّ رائحة الحريق في قَبْضة خزّانٍ كبيرٍ، كلٌ يقول: نفسي، نفسي! ليس لشِدّة الحرِّ أو الظلام، فهُما أدعى للسُّكون أو للتَّكاتُف، ولكنْ مِن تخبُّطِ الأهوال وحيرةِ الوجود.

نيرانٌ تقترب، وتساؤلاتٌ قلّما تجدُ لها مجيبًا.

- أين نحن؟

- ماذا نفعل هنا؟

- ما الذي يجري لنا؟

لا دموعَ، فالخائف حقًا لا يقدر على البكاء. ولا خجلَ، فالمُنشغل حَدَّ الفَرَقَ بذاتِه لا يبالي بغيره. كذلك، هذا ليس شاطئًا للعُراة، يستجِمّون فيه!

تزداد الأسئلة، وتتعالى الأصوات، ويشتدّ الحرُّ، في تَصاعُدٍ مُتوتِّرٍ كئيبٍ رهيبٍ، حينما تقترب الشمس، وتضيق على الأرض الخلائق، وتبدو الأرضُ غيرَ الأرضِ، فلا كواكبَ ولا سماءَ ولا نجومَ، ولا أشجارَ ولا مرتفعاتِ، لا بيوتَ ولا طرقاتِ. أرضٌ مُنبسطةٌ واسعةٌ، لا يكشِف ذلك إلّا الخَلْقَ المُمتدَّ بما لا تحيطُ به عينٌ ولا يدركه سمعٌ.

يصرخ أحدُهم:

- الذاكرةُ حديدٌ، والبصرُ حديدٌ، ولا أرى شيئًا مِمّا أريد فماذا جرى؟

يردُّ عليه آخر:

- كابوسٌ كبيرٌ!

فيجيبه صوتٌ:

- لو كان كابوسًا لَوُجِدَ في عقلٍ واحدٍ، لكنّ كُلّاً منّا يَصنع حواره، ولا يتدخل في غيره! هذا واقعٌ أسوأُ من الكابوس.

بينَ الجموع، تبرز جماعةٌ خوفُها، قلقٌ هادئٌ على شُرُفات التّرقُّب والانتظار. فخوفُ العارفين ليس كخوفِ الحائرين، خوفُ العارفين يقينٌ، وخوفُ الحائرين تَخَبُّطٌ.

قالت جماعةٌ مِن العارفين، قالت بلغةِ الواثقين:

- هذا يومُ البعث والحساب.

نظرتْ جماعةٌ من الحائرين، بتشكيكٍ وازدراءٍ، نحوهم، ثم قالت:

- وكيف عرفتم؟ (قالوها ساخرين.)

- هذا ما أورده الربُّ في كُتُبه، لكنّكم أنكرتم هناك، فنَسيتُم هنا. الإنكارُ يُميتُ الذاكرة، لأنّه يُغيِّب الروح، للأرواحِ ذاكرةٌ.

لغتُهم الواثقة، جعلت الحائرين يتردَّدون، كانوا مُتعلِّقين بأيِّ تفسيرٍ يُوضِّح الموقف. طريقتُهم كانت تَصِفُ العُمق بعُمقٍ، جعلتِ الكلام حديثَ أرواحٍ، مِنْ روحٍ عارفةٍ إلى روحٍ تريد أن تعرف، ولا تحتاجُ لأدلةٍ لتُصدِّقَ، ولو أنكرَ العقل.

صَمَتَ خَلْقٌ كثيرٌ، فليس أقسى من الحيرةِ سوى الحسرةِ. تلك الحيرة تجعل النّفْس على قيْد الأمل، أمّا الحسرة، فهي بِنتُ اليقين

الأسود حين يذوب مِلْحُ التّوقعات المُشرَعة في بحار اليأس. هو نفسُ الفرْق بين كلمتين: «مفقودٌ / فقيدٌ.»

مِنْ بعيدٍ أو قريبٍ، لاح لهم في الأفق، بهيئةٍ ليست كهيئة البشر لم يتعارفوا عليها. تنحنحَ بملءِ وضوحِ الصوت، فالتَفَّتْ أو التَفَتَتْ إليه كلُّ الأعناق، ولو همس لما ارتفع صوتٌ فوقَ صوتِه.

– من هذا؟ (تهامَسَ النّاس بخوفٍ بالغٍ وبصعوبةٍ في النّطق.)

قال أحدُهم بثقةٍ وهو يهزُّ رأسه أسفًا:

– هذا الشّرُّ الذي كان على (فينوس)، يسكنُ الآن جسدًا.

– أتقصد أنّ هذا شيطانُ كلِّ تلك الشرور؟

كانَ الشيطانُ يستمع إلى الكلام بفخرٍ ولا مبالاةٍ، حتى سمِع العبارة الأخيرة، فانتفخ غضبًا، وزمْجرَ حتى اصطكّت الآذان فَرَقًا:

– لستُ سببًا لشيءٍ، أنتم صنعتم هذا بأنفسكم، أنا قلتُ ما عندي وربّي قال ما عنده، فاتّبعتُموني وكذّبتموه. وفي الحقيقة وللدّقّة: اتّبعتم أنفُسكُم وكذّبتم ربّكم.

لستُ إلا تجسيدًا لأعمالكم. أنا أنتم، حينَ كنتُم ترفضون كلمات الرب. لستُ إلا خطاياكم مجتمعةً في هيئةٍ كبيرةٍ واحدةٍ.

– يا لكَ من خبيثٍ!

– يحِقُّ لك أن تقول ما شِئت، فقد أتْعَبْتني في حياةٍ سابقةٍ كثيرًا. (ثمّ

ضحِكَ بفُجور.)

- أحقيقيٌّ أنتَ أم رمزٌ للشّرِّ؟ (سأل أحدُهم بحَيْرة.)

- أنا حقيقةٌ أكثرُ غموضًا من الرمز، ورمزٌ أشدُّ حضورًا من الحقيقة. أنا اختيارُكم الحُرُّ. أنا النهار!

- أنتَ مُظلِمٌ كهذا الليل، لا بياضَ فيك.

ضحك ساخرًا ثم قال:

- أنا النّهارُ الذي يكشِف المُبصرَ من الأعمى.

- يا لك من خبيثٍ! (قال بعضُ العُميان.)

- لستُ خبيثًا، إلّا بقدر ما تحتاجونَني وتطلبون مَشورتي.

- لقد قمتَ باستغلال ضعفِنا. (قال أحدُ السّادة سُود الوجوه.)

- لقد قمتُ بشرح أنفُسكم لكم فقط. لقد قدّمت لكم ما تمنّيتم سماعه فقط. هل أجبرتكم يومًا على شيءٍ؟ هل سمعتم يومًا بأحدٍ مات لأنّه رفض نصيحتي؟

- أنتَ لا تفعلُ، لكنْ تطلبُ منّا أن نفعل.

- شكرًا إذنْ لأنّك وثِقت بي!

ماذا الآن؟ صرخت الجموع. ماذا سيحِلُّ بنا؟ لقد خُدعَنا خديعةً كبيرةً وظلمْنا أنفُسنا ظلمًا شديدًا.

قالت فتاةٌ في مقتبل العمر:

- آلآن؟ بعد أن ضاع عمري هباءً بسبب أحدكم أيُّها القتلة!

قالت أخرى:

- قتل بعضهم ابني أمامي قبل أن يقتلني.

قال شيخٌ شديدُ انحناءِ الظّهر:

- لقد فَنِيَ العُمُر في حمْلِ الأثقال لإطعام الجياع حتى انحنى الظَّهر، وغيري كان يسرق ليلَ نهارَ.

أنغَضَ الجميع رؤوسهم في صمتٍ مَهيبٍ، كأنّهم على موعدٍ يتكلمون، وعلى موعدٍ يصمتون.

****

سياسةُ التّجويع، حين تتحولُ من هدفٍ نبيلٍ يُراد به منحُ الأمل بعد الألم الذي تستَحِقُّه، إلى سياسةِ قهرٍ وعقابٍ. يتمايزُ الفَرْق بين خُطط الربِّ وتقليد البشر الذين يُبرِّرون جرائمهم بالاقتداء به.

كان ذلك الانتقال السريع من الحيرة، إلى الحسرة أو القلق، فرصةً ليُحاسِب كلُّ ذي نفسٍ نفسَه، بلا قُضاةٍ. متى يحاسبُ المرءُ نفسه ويُدينُها؟ إذا خشي أنً يُدينه غيره لاحقًا. حينما نُدرك أنّ العورة انكشفت للجميع، نهتَّمُ بسَترِها. الكلُّ يتعرّى وهو يتغطَّى بالنهر! فإذا كشفه العراء استتر.

وقفَ كلُّ الخَلْق، ينتظرون ماذا سيحدث الآن؟

رفع أحدُهم نظره للأعلى، إثْرَ الضّجيج، وانفتاح كأنّه صريرُ بابٍ ضخْمٍ. ثم ارتفعت عيونٌ كثيرةٌ استِجابةً للصوت، ثمّ حمْلَقت العيونُ كلُّها كأنَّ الرقاب كلَّها مربوطةٌ بحبالٍ للأعلى، أبصارٌ شاخصةٌ، وأصواتٌ خاشعةٌ، وقلوبٌ واجِفةٌ.

بدأ رَتْلٌ يتلوه رَتْلٌ مِنْ مخلوقاتٍ عجيبةٍ تَتْرَى، مضيئةٍ من نورٍ أو من نارٍ. فَرَدَتْ أجنحتها حتى لَفَّت الخلائق كلَّهم وأحاطت بهم ولَفَّتْ جموعَهم. ثم ظهر ثمانية ملائكةٍ بأجنحةٍ تمتدُّ عبر الآفاق، يحمِلون عرشًا لا يكاد يُتَبيّن أولُّه من آخره، ثم كان التّجلي الكاملُ للربِّ أمام الخَلْق. لم يَحْتملْه قلبٌ ولا عقلٌ ولا جسدٌ. تمنّى كثيرون لو يَخِرّون ميّتين، لكنّهم عجزوا حتى عن راحة غَضِّ الطَّرْف.

أسوأُ ما يمكن أن يعاقَب به الضعفاء ألّا يتمكنوا من التّملُّص بطرْفهم مِن الأقوياء. لا حلَّ! فكّر كثيرون: لا حلَّ في مواجهةٍ خاسرةٍ. بتخبُّطٍ شديدٍ وباصطدامِ الأجساد صاروا يهربون بلا وُجهةٍ يتوجَّهون إليها. يركضون ويعودون لرؤيةِ الأشكالِ نفسِها والمشاهدِ نفسِها والحواجزِ نفسِها.

لا مفرَّ اليوم!

خرج صوتٌ عميقٌ، لم يُسمَع بمثلِه مِنْ قبل. برز أحدُ المخلوقات النورانيّة بأجنحته الكثيرةِ الضخمةِ المبسوطةِ. فوقف الجميع

مشدوهًا محدِّقًا ساكنًا، آمنوا بما قيل قبل أن يصل إلى آذانهم، حتى شَكُّوا إن كان قد أَسمعَ آذانَهم أو خاطبَ أرواحَهم.

وفي لمحِ الخبر، أمرَ بالجحيم فبُرّزت مُستعرةً غاضبةً. مخلوقةٌ بشعةٌ تتغاوى بشعرها النيرانيّ منثورٍ في كلِّ جانبٍ تكاد تَرُشُّ الخَلْق بلُعابٍ من شَرَر.

ونافستها فتدلَّت كالثُّريا حتى دَنَتْ وأُزلِفت جنّةٌ عظيمةٌ تتهادى تكاد تنشر ثوبها الرقيقَ لتلفَّ الخلق كلهم.

تنافست كلتاهما لإبراز مفاتنها. حتى أُمِرَتا بالسكون، ليُقضى في كلِّ مملكةٍ مواطنيها.

ومن الأرض ارتجَّت وبدأت بالبُروز كتلةٌ صغيرةٌ، يبتعد النّاس عنها، وتكبر، وكلّما كبُرت ابتعدوا أكثر، حتى غَدَتْ جبلاً عظيمًا تحته الخلائق لا يملكون حتى أن يتحكموا بِدَفْقِ أنفاسهم أو بانخلاع قلوبهم.

تمنّى كثيرون لو يُقضى عليهم فيموتوا، أو يُكتب عليهم فيَستفيقوا. بلغت القلوب الحناجر، وخَشَعت الأصــوات، وسَكَنَ كلُّ شيءٍ حتى الجنةِ والنّارِ، واصطفّت الملائكة كأنّها في عرضٍ عسكريٍّ وجاء القول الفصل:

«هذا يومُ الفصل جمعناكم والأولين[٤]»

صمتٌ قليلٌ ثم صوتٌ يقول:

«لقد ظننتم ألّا يحدث هذا، وكذّب بعضكم بعضًا، فاليوم نحكم بينكم. مَنْ عَمِلَ منكم خيرًا ومَنْ عَمِلَ منكم شرًا. ولا يُؤذَن لأحدٍ منكم بالكلام إلا أنْ يُؤذن له.» وبإشارةٍ خاطفةٍ، وُضِعت على طول المشهد موازينُ كثيرةٌ. كُتِب على بعضها:

ميزانُ الإيمان.

وعلى بعضها: ميزانُ العمل الصالح.

وعلى بعضها: ميزانُ حب الخير.

وعلى بعضها: ميزانُ الصبر.

وعلى بعضها ما كان للأطفال، أو للشيوخ، أو للنساء.

وميزانٌ عليه: ميزانُ الإخلاص.

وآخر عليه ميزانُ العمل مع العلم. وميزانُ العمل مع الجهل. وميزانُ العمل مع الاطمئنان. وميزانُ العمل مع الفتن. وميزانُ مَنْ تَقَدَّم. وميزانُ مَنْ تأخَّر. وميزانُ الشّك. وميزانُ اليقين. وموازينُ أخرى كثيرةٌ. ثم وضعت جميعًا وخلفَها كلِّها ميزانٌ هو الأبرز كُتِبَ عليه «ميزانُ التفكير.»

---

(٤) المرسلات: ٣٨.

حين رآه كثيرُ خلقٍ استبشروا، وآخرون استنفروا واستدبروا.
مَرَّ شريط الحياة كلمح البصر، وحاسبتْ كثيرٌ من النفوس نفسَها، قبل أن تُحاسب. وظنّ أغلب الخَلْقِ أنّهم هالكون لا محالةَ، فلا صغيرةٌ ولا كبيرةٌ ينسونها الآن.
كشاشاتِ عرضٍ كبيرةٍ، عُرِضَ لكلِّ شخصٍ ما كان من أمره حين اتّفق مع الرب على الحياة التي يريدها، ثم كيف عاش تلك الحياة، تلفَّت بعضهم إلى بعض، ظنَّ كلُّ فردٍ منهم أنّ الجميع الآن يشاهد حياته هو وفضائحه هو. وقع جِلْدُ كثيرين خجلاً ممّا كان من أمرهم؛ «يا فضيحتي على رؤوس الناس!» قالوا.
بكى غيرُهم كثيرون فَرَقًا.
نادى صوتٌ: «هذا يوم الحساب، لكن الربَّ لا يحبُّ الفضائح، سَتَرَكم في الدنيا ولن يفضحكم في الآخرة، كلُّ مخلوقٍ منكم لم يَرَ إلّا حياته هو.
هذه قدرة الربِّ، كلُّكم تنظرون إلى الأمام، لكنّ أحدًا منكم لا يرى ما يراه غيره، ولا يطَّلع على شأن غيره. ليشهد على نفسه فقط.
ثم بلُغةٍ آمرةٍ:
«لِيُحاسبْ كلُّ منكم نفسه قبل أن يحاسبه الرب.»
«إنا هالكةٌ لا محالة!» قالت كلُّ نفسٍ لنفسها، فما بقي أحدٌ ظنَّ أنَّه

سينجو حين رأى أنّه ابتعد كثيرًا عمّا يجب أن يكون عليه.
ثم فُتِحت شاشات العرض ثانيةً، ورأى كلٌّ منهم كيف كانت ستكون حياته لو أنّه التزم بالعقد، وبذل الجهد في إيصال حياته نحو منتهاها.
كم كان ذلك جميلاً، ومؤلمًا ومفجعًا! حين تدرك فجأةً أنّه كان بإمكانك تجنُّب كلِّ هذه الخسائر، كان بإمكانك أن تحيا حياةً جميلةً تصنع منها جنَّةً حقيقيّةً قبل هذه الجنة التي أُزلِفت وتدلَّتْ.
كم كان جميلاً لو احتفظنا ببقايا ذاكرةٍ أوليّةٍ تُمكِّننا من معرفة ذواتنا أكثر، وتَلَمُّس طريقنا أوضح، وتَجَنُّبِ مخازينا أكثر!
كان الربُّ يراقب خلائقه من على عرشه العظيم، وحوله الملائكة يقومون بواجباتهم، لا فوضى هناك في الأعلى، كلٌّ مَلَكٍ يعرف فيمَ خُلِق. خاطب الربَّ الخلائق حين انتهى العرض قائلاً:
«ألستُ بربِّكم؟[٥]»
سمعها الجميع؛ العربيّ والإنجليزيّ واللاتينيّ والعبريّ، فهمها أولُّ الخلق وآخرهم، كلٌّ بلغته (هذه ليست خرافةً ولا معجزةً، إنّها ليست أكثر إبداعًا من تلك المؤتمرات التي تُفرِّقها ألسنةٌ شتى، ويجمع آذانَها جهازٌ صغيرٌ يُترجِم ما قيل.)
رَدُّوا ردًّا واحدًا: «بلى شهِدنا.»

(٥) الأعراف: ١٧٢.

قال لهم: «أتعترفون بذنوبكم؟»
ردُّوا رَدًّا واحدًا: «نعترف يا ربِّ أنّنا ظلمنا أنفُسنا.»
عادلٌ جدًا أن تعرف كلُّ نفسٍ أنّ ما تفعله يرتدُّ عليها وإليها، وأنّ الربَّ يبالي بك حين تظلم نفسك، وأنَّ رائحتك المُتَّسخة أولُّ من يشمُّها أنت، وأنَّ طعامًا تتناوله ينفعُك أنت. حين تحبُّ نفسَك ستحبُّ كلَّ الناس، وحين تظلم نفسك سيهون عليك ظلمُ كلِّ الناس. أنت أُسُّ الحقيقة وصمَّام الأمان لمن حولك. جميلٌ أن ندرك هذا، لكن الأجمل أنْ ندركه قبل فوات الأوان.
هناك، قال الربُّ:
«هذا وقت الحساب.»
لم يفهم أحدٌ، «وما رأيناه؟ لقد عرفنا مصيرنا، ونستحقُ ما ينالُنا.» تساءل الخلق.
ردَّ الربُّ:
«لقد قضيتم على أنفسكم بميزانٍ واحدٍ، أمّا أنا فعزَّتي وجلالي عندي من الموازين ما لا تعلمون. وخيرٌ من كلِّ ذلك عندي لكم رحمةٌ خبَّأتها لهذا اليوم، أُنيلُها لكثيرِ خلقٍ وأمنعُها عن كثيرِ خلقٍ.»
شَعَرَ الخَلْقُ، أنّ هواءً طيِّبًا يسري في الصعيد المُمتدّ. حتى إبليس تطاول بعدما صغُر، وعاد فانتفخ، حتى كاد يجنُّ فرَحًا.

عادت الشاشات لتظهر مِنْ جديدٍ، كلٌّ يرى بعين روحه عمله يملأ الشاشة، وميزانٌ يبدو، تُعرَضُ عليه الأعمال، ثم يختفي ليظهر آخرُ تُعرَض عليه الأعمالُ نفسها، ثم آخرُ، حتى يحصل على خلاصةِ نتيجةِ عمله، كما المعدَّلات التراكميّة والمتوسّطات الحسابيّة. لم تكن النتائج صعبةً، إمّا ناجحٌ «من أهل اليمين»، أو راسبٌ «من أهل الشمال»، أو مُكمِلٌ «من أهل الأعراف».

هكذا كان الفيصل في الحساب، سهلٌ وبسيطٌ وسريعٌ.

****

وُضِعت موازينُ القسط للراهب، فَدَقَّ قلبه وَجَلاً، وُضِع ما كان من أمره مع السيدة في كفّةٍ ووُضِع عملُه كلُّه في كفّةٍ، فرجحت كفة سيئاته مع السيدة. «هلكتُ!» قال بيأسٍ، لم تكنْ النتيجةُ مفاجئةً؛ أنْ يستسلم لها، ثم يصمت عن شهادتها، وأخيرًا لا يقدر على حماية القديسة. كيف تطاولت نفسه وامتدَّ أمله للحظاتٍ؟!

نـاداه الرب قريبًا منه، قام يمشي خجِلاً، وقف أمام الربّ، فحجب بينه وبين خلقه، ثم قال له:

- هل عندك ما تدافع به؟

- يا ربِّ، أعترف بذنوبي. (صمت طويلاً، ثم قال):

- غير أنّي كنت غرًّا صغيرًا، عبدًا مطيعًا، ولمّا استجمعتُ رجولتي

هربتُ منها، ورفضتُ الاستمرار معها، لن تكذبَ لو سألتَها. لكنّها لفّقت لي تهمة القتل، مع ذلك لم أستسلم. وحاولت أن أنقذ الفتاة، لكنني تأخرت. ذنبي يا ربّ أنني دائمًا أتأخر عن الموعد.

قال الربُّ:

- نادوا السيّدة.

جاءت يجرُّونها وهي خائرة القوى تولول، تحاول الهرب، لكن أنّى لها؟!

- هل قمت باستغلال سلطاتك لتعبثي بجسده؟

- نعم. (قالت باكيةً.)

- هل لفّقتِ له تهمة القتل حين رفض الاستمرار في غوايتك؟

- نعم، نعم. أعترِف.

- هل لك عذرٌ؟

- لا عذرَ لي، سوى أنّ شهوتي غلبتني وزوجي أهملني.

- لقد اعترفتِ ألّا عذر لك.

ثم التَفتَ الربُّ إلى الراهب قائلاً:

- لقد قبِلنا عُذرَك، ورفعنا ثقل ظهرك وتجاوزنا عنك. لقد أسأتَ ثم استدركتَ، وهذا منتهى ما أحبُّه لكم. لقد غفرتُ لك لأنك حين استويتَ رجلاً، لم تقبلْ أن تكون لغيري عبدًا، لا لشهوتك

ولا لغوايتها. كنت باحثًا عن الحقيقة، وهذا أمرٌ عظيمٌ.
ثم ناولته الملائكة كتابه بيمينه، فتلفَّت حوله وهو لا يصدّق، لولا تهاني الملائكة له، خرج يقفز، ويصرخ بصوتٍ عالٍ: «لقد نجوتُ، لقد نجوتُ.»
ثم إنّه رأى ما حلَّ بالمرأة من حُكم بالذنب. وبكاءها الشديد تنادي عليه من بعيدٍ ليسامحها. تلفَّتَ إليها وفي عينيه رقةٌ وألمٌ لحالها. لقد ذاق طعم الخوف وذاق طعم العفو.
استدرك راجعًا طالبًا الإذن بالحديث، فأُذن له، فقال:
– يا ربِّ، ذقتُ طعمَ رحمتك الواسعة، وحبِّك لخلقك، فهل تأذنُ لي بقولٍ، ولستُ بأرحمَ بها منك؟
– تكلمْ، قد أجزناك.
– قد غفرتُ لها، وأسقطتُ حقي فيما يخصّني.
– لماذا فعلتَ ذلك؟
– يا ربِّ، ما دمتَ راضيًا عني، وما دمتُ قد نجوتُ فلا حاجة لي بعقابها. ثمّ إنني تعرضت لاغتصابها كما تعرضتِ القدّيسة له، وقد ساءني أنّني لم أصدّق القدّيسة سريعًا، ما فعلته بي السيّدة كان عقابي المُعجّل لذنبٍ مؤجلٍ أنْ لم أصدّق الفتاة.
– لكنْ لا بد أنْ أتأكد أنّها تستحق المغفرة.

- كيف يا رب؟
- أنتظر وسأخبرك.
- نادوا القديسة، فقد اشتقتُ إليها. (قال الرب.)
جاءته تُهرع، ودمها لا زال يغطي رقبتها وجسدها.
- اقتربي مني.
- يا ربِّ، هل لي بسجدةٍ تحت عرشك؟ (قالتها والدموع تغرق عينيها وتمتزج بدمها.)
- ألستِ خائفة؟
- خائفةٌ يا ربِّ، لكنّ شوقي إلى سجدةٍ يميت خوفي أو يُخجِله.
- لا سجودَ اليوم. لقد رأيتِ حسابك. وعرفتِ أنّك من الناجين، فهل لديك ما تقولينه الآن؟
- وددت لو أعيش لأعبدك أكثر، وأنفع الناس أكثر.
- واثقةٌ من ذلك؟
- نعم.
- أَلك حاجةٌ أخرى؟
- سؤالٌ.
تبسَّم الرب، فهو يعرف. أَذِن لها.
- من أحبُّ الناس إليك من غير الأنبياء؟

- رجلٌ يكون لنبيّي رفيقًا، يعينه ويصدِّقه.
- يا ربِّ، لستُ رجلاً يقوم مع الأنبياء، يرفع الحجارة من طريقهم، ويرافقهم في أسفارهم، أيمكن أن تحبني مثله؟
- إن أحببتني مثله.
ثم سألها الرب:
- ألك حاجةٌ أخرى؟
- كلا يا رب.
- إذن انتظري مع المنتظرين.
كان صوتٌ من بعيدٍ ينادي عليها، صوتٌ مرعبٌ يبثُّ الرّعب، يبكي ويتلوى في بكائه كأنّه ضجيجٌ معدنيٌّ، أو أزيز طَبشورةٍ على سبّورةٍ.
التفتَتْ إليه، شعرُه منفوشٌ ووجهُه أسودُ، وعيناه محمرّتان كجمرةٍ توهِّجُها الرّيح. كانت الملائكة تحيط به، تجرُّه بعيدًا بعيدًا بسلاسلَ من شَوْكٍ، وحبالٍ من ماءٍ حميم.
أشاحت بوجهها عنه، لم تُطِقْ النّظر إليه، سألت:
- مَنْ هذا يا رب؟ لماذا ينادي عليّ؟
- إنّه قاتِلُك.
تحسَّست رقَبَتها، وتذكّرت أخاها.

- ماذا يريد يا ربِّ؟
- المغفرة.
- ثقيلةٌ عَلَيَّ.
- ألا تغفرين له وأعطيك فوق ما طلبتِ؟
- فإذا غفرت له، ماذا يكون من أمره؟
- أُخيّرُه بين البَيْنَين.
- إن غفرت له فأُمّي وأبي أولى بالمغفرة.
- وهذا أدعى لأزيد في العطاء لك.
- هل تكون راضيًا؟ هل تحبُّ أن أغفر؟
- إنّي أنا الغفور الرحيم، ورحمتي سبقت عذابي.
- غفرتُ يا رب، غفرتُ، لترضى.

عندئذٍ، فُكّتْ أغلاله، ونودِيَ به وأهلَه معه، وقيل له أنْ انتظرْ مع المنتظرين. على جبل الأعراف وقفوا جميعًا: (الراهب، وزوجة السيد، والقديسة، وأهلها)، ووقف خَلْقٌ كثيرٌ، بين طالبِ رحمةٍ، ومُغتَصباتٍ، وقتلى من صغار العمر، وأهلُ العلم والشَّك، مِمّن كان الموت قاطع طريقٍ لأعمارهم، قبل وصولهم للحقيقة المُطلقة. ضحايا لصوصِ الأحلام، وأبناءُ الضياع حينما تنقلب الحقائق وتتبدّل كلمات الله في عقول الخلْق لتصير مُبهمةً أو سيفًا

تُقطَع به رقاب الخلق، فتحتملُ المعنى وضده؛ فقَتْلُ كلِّ الخلق حلالٌ، وأنْ تقتل نفسك حرامٌ. فآثروا أن يقدموا أنفسهم على مذبح الإله في الآخرة، محتفظين بضمائرهم حيّة وأيديهم نظيفة، على أن يَصِلوا وُدَّهُ بقربانٍ من دم وضميرٍ ميْتٍ.

في حياةٍ سابقةٍ شجرةُ زيتونٍ، كانت تحتضن تحتها الأنبياء، أو تقاوم فصول الجفاف والشتاء، أو شجرةُ برتقالٍ حزينةٌ شهدت على خطوات الهاربين من الموت، أو حمامةٌ عبرت جسدَ عجوزٍ جائعٍ لتصير له وجبة غداءٍ قبل أوانها، أو لبؤةٌ ماتت كمدًا حينما أكلتْ غزالةً يحتضنُ رحِمها جنينًا لا ذنب له في صراع البقاء، بين الكبار.

تكلم كلُّ هؤلاء من نباتٍ وحيوانٍ، يريدون أن يفعلوا أكثر، ظنوا أنّهم قادرون على أن يكونوا خيرًا من بني البشر لو حلّت أرواحهم في أجسادٍ بشريّةٍ مرةً ما.

ووقف خَجِلاً فزِعًا بينهم، من وُهِب خصمًا نقيًّا غفر له، فتفوّق عليه.

جميعًا وقفوا على جبل الأعراف كما يقف الناس اليوم بجبل عرفات، لا يعرفون ماذا بعدُ.

نظروا إلى أهل الجنّة، كيف سُعدوا، فاستبشروا، وتمنَّوا حياةً كحياتهم، ونظروا إلى أهل النار ففزعوا وتعجّبوا.

صرخ أحدهم وهو على الأعراف حين رأى قاتِلَه في النار:

فلانُ! هذا فلانُ قاتلي، الذي كبَّر وذبحني لأنّي لم ألبِسْ فكرته. عجبًا يا ربِّ، لماذا أدخلته النار وهو يعبدك؟ وأَنْظَرْتَني وأنا ذبيحُ شكّي فيك.

- لأنّه تمرَّد على الفرصة التي منحتها لك. لقد عبث بقراري. التدين أن تعرفوني أكثرَ بالعقل لا أن تعبدوني أكثرَ بالقتل.

****

خاطبَ الرّبُّ جموعَ المُتأرجِحين بين البَيْنيْن على الأعراف:

«كلُّ واحدٍ منكم، برحمةٍ من رَحَماتي وبميزانٍ من موازيني، يستحقُّ فرصةً أخرى، يشهدُ فيها لنفسه أو عليها أنّه ظُلِم في حياةٍ سابقةٍ، ويستحق فرصةً في حياةٍ أخرى.»

رغم أنّ الكلام كان غريبًا وغيرَ ما توقّعه كثيرون إلّا أنّ روحًا نُفخت من خالقها في أنفسهم فهمتْ كلَّ شيءٍ سريعًا.

إذنْ، هي فرصةٌ ثانيةٌ، عودةٌ لِما كان، سعيٌ جديدٌ وتقدِمةٌ جديدةٌ.

لا بدّ أنّ هذا ينقذ كثيرين. بعضُ الواقفين قَبِلَ بالعودة ليقدِّم المزيد، وبعضهم قَبِلَ بالعودة المشروطة بالتّغيير. بعضهم ارتبطت عودتُه بأن ينقذ غيره، ولِيعرفَ الله بقلبه وبعقله أكثر، أحبَّ أن يخوض تجربةً، وأن يكتشف ربه بقلبه وبعقله لا بما أخبروه به عنه يومًا.

«إنّها فرصةٌ ثانيةٌ، أفضلُ من الذهاب إلى الجحيم للأبد.»

تمتم كثيرون بما يشبه النطق مشجّعين أنفسهم، وترددت في جنبات أرواحٍ أخرى: «لا زال لديّ عملٌ أقوم به لأجل الآخرين، كما نجوت أوّل مرةٍ سيكون الرب مرشدي لأنجو ثانية، ولأساعد غيري لينجوَ، ولأكون أفضل.»

كان يسمع ما قيل وما قد يقال، ما خطر في الفكر وما حاك في الصدر، أليس إلهًا؟!

قال مخاطبًا إيّاهم:

«كلُّ شيءٍ ثانٍ أصعب، لأنّه تحدٍ للأول، ودعوةٌ للتفوق عليه، وإلّا فإنّه لا يستحق المحاولة.»

تعالت بعض الأصوات من هِمَمٍ مُتأخرةٍ، ونفوسٍ اعتادت فرطَ التشابه: «يا ربِّ من المستحيل أن تتكرَّر الظروف نفسها، ويحصل تغييرٌ، ليس بالإمكان أفضل ممّا كان.»

رَدَّ عليهم:

«الأخطاء مكوِّنات حياتكم، لا بأس من أنْ تكرِّروها بطريقةٍ أو بأخرى، لكن لا تتوقفوا عندها، واعرفوا كيف تتعاملون معها. استغلوا ما أعطيكم بأفضل وبأقصى ما تستطيعون، لتجعلوا المستحيل ممكنًا، فالفرق بين المستحيل والممكن مزيدٌ من الوقتِ والتجاربِ والصبرِ فقط.»

قالوا بصوتٍ واحدٍ، كانت مشكلتُهم واحدةً، كانت مشكلةَ روحٍ وليست مشكلةَ جسدٍ، مشكلةَ عقولٍ تتوق للسلام، وليست مشكلةَ أبدانٍ، لذا قالوا معًا:

«نحتاج للحبِّ يا ربُّ، نحتاج لأن تنشر بيننا الحب لنتعاون أكثر، ولنملك وقتًا لنتساءل أكثر، لنعبدك أفضل.»

ردّ عليهم:

«هو قولٌ فصلٌ، أينما تكونوا يدرككم الحب، لا تطيعوا أنانيتكم البغيضة، وأحبوا أعداءكم كما تحبون أصدقاءكم لأنّ أعداءكم يُهدونكم مشاعرَ صادقةً، وبعضُ الأصدقاء يخدعونكم باسمي.»

سألته القدّيسة:

«ونحن معاشر النّساء، يا ربِّ؟ إنّهم، معاشرَ الرجال، يحتكرون كلّ سبيلٍ إليك، ولا يسمحون لنا بالوصول إليك إلا على جسرٍ من التعب، يَرونا غيرَ أهلٍ لعبادتك ويتدخلون في شؤون أجسادنا وقلوبنا، ويقررون عنا كلَّ شيءٍ كأنّنا نجسٌ أو رجزٌ أو أشباهُ بشر. على مائدتك يأخذون كلَّ شيءٍ ويتركون لنا الفُتات.»

هنا بدا الربَّ غاضبًا بعض الشيء ليس لأنّه لا يعرف أو لأنّ خبرًا جديدًا وصل إليه، ظنَّته غاضبًا منها، كادت تعتذر، لولا أنْ همس لقلبها أنْ تقرَّ عينُها ولا تحزن. فهو غاضبٌ من أولئك الذين لا

يحترمون كلمته ولا يحترمون صنع يديه من النساء.
قال للجميع:
« كُتِبَ عليكم احترامُ المرأة، كما هي وأنتم كارهون، وزُيِّن لكم حبُّ المرأة كما هو وأنتم راغبون، ولن تنالوا الحُبَّ منهنّ حتى تبذلوا الاحترام لهنّ.»
استأذنت، فأذن لها، فقالت:
« أنا لا أطالب بالمساواة مع الرجل، أنا أطالب فقط، بأنْ يسمح لي المجتمع تقديمَ كلِّ طاقاتي الممكنة كأنثى.
أنا لا أريدُ أنْ أخلع جلد الأنثى على مِشجبٍ أمام الباب حينما أخرج إلى مُعْتَرَكِ الحياة.
لو أنَّ النحلة تحولت إلى دَبّورٍ لما صنعت العسل.
لن أسمح لأنوثتي بأن تكسر إرادتي، ولن أسمح لإرادتي وطاقتي بأن تُضيِّع أنوثتي.
لن أتنازل عن أيٍّ منهما.
وأحب أن يمتدحني رجلٌ لأنني أجيد الطبخ والتنظيف، كما أحبُّ أن يمتدحني لأنني أجيد فهم الكتاب وتولي المناصب.»
قال الرب:
« لا مُذكَّر بينكم الآن، أرواحُكم ليست مؤنثةً ولا مُذكّرةً، كلكم

هنا سواءٌ، وليس أمرًا عظيمًا أنْ يختار أحدٌ أنْ يسكن روح أنثى أو يسكن روح ذكرٍ، أمّا الروح فيشار لها بالمؤنث وأمّا بيتها الجسد فيشار له بالمذكر، لتعرفوا أنّ التكامل هو صانع الحياة وأنّ العبرة بما تقومون به من خيرٍ. وكما سأجعل من الماء كلّ شيءٍ حيٍّ، فمن رَحِم الأنثى تكون الحياة، فيها أستودع أسراري، وأبذُرُ فيها البشرى قبَل أن أُعلِنها لكم، يحمل الأنبياء رسالاتي وتحمل الأنثى الأنبياء. لا تحتقروا حَمْلها ووَضْعها، لا تستهينوا بضعفها، فما تحتمله من أسراري لا يحتمله نبيٌّ ولا يطيقه عَتيٌّ.»

****

بعدَ ذلك، على الأعراف خرجت كلُّ روحٍ من جسدٍ بأمر ربِّها، كأنّها تنزع ثوبًا باليًا. وتبعت النداء إلى أرضٍ، ليست بأرضِ حساب ولا بأرضِ بداياتٍ واضحةٍ أو نهاياتٍ مؤكَّدةٍ.

كانت أرضًا شفافةً، أمام نهرٍ كبيرٍ، تُطلُّ على الكون كلِّه، تراه بعينٍ غيرِ عينٍ تَجلَّى لها ربُّها عند الجبل.

كانت الأرواح هناك مضيئةً، تميِّز بعضها بمقدار السُّطوع. أرواحٌ باهتةٌ، وأرواحٌ شديدةُ الضياء، أرواحٌ حائرةٌ وأرواحٌ ساكنةٌ، لم تكن تمشي على رجليْن، بل كانت تتحرك في فضاءٍ واسعٍ كَبُقعِ ضوءٍ مُعلَّقةٍ في ليلٍ صيفيٍّ تلوِّح من بعيدٍ. كانت تتآلف أو تتنافر

بلا سببٍ، لم تَعُدْ لها ملامحُ تُعرَف بها، أو أصواتٌ تتميز بها، أو مُقوِّماتٌ وجودٍ سابقٍ تستعين بها.

كلُّ روحٍ عرفت نفسها فقط، واحتفظت ببقايا ذاكرةٍ ممّا كان، ومهيأةٍ لما سيكون.

«عمّا قليلٍ يصير لكلٍّ منكم جسدٌ، وملامحُ تناسب الروح واحتياجات المسير. بعضكم سأُلبسه محنةً في ثوب منحةٍ، وآخرين سأهديهم المنح، فإن أساءوا ستنقلب عليهم محنًا.

ستنسَوْن كلَّ ما كان لكم في حياةٍ سابقةٍ، وستنسَون موقفكم هذا، ستولدون من جديدٍ كأنّكم لأولِّ مرةٍ تعيشون الآن، ستتخيَّرون لأنفسكم الفرص وستختارون حيواتِكم وأهدافكم وطريقكم لتثبتوا أنّكم تستحقون أنْ تخرجوا من عالم الأرواح إلى عالم الأجساد، ومن عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فمَن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، ليس من ظالمٍ إلّا ويكون ظلمه عليه لا على غيره. فإنْ ظلم بعضكم بعضًا، سأقتصُّ للمظلوم من الظالم عاجلاً أو آجلاً.

وأيُّ بلاءٍ يصيب أجسادكم وأحلامكم، يكون رصيدًا لكم، ولا تيأسوا.»

سأل أحد المُنظَرين، ممّن أضاءت روحه حتى سطعت وجذبت إليها كثيرَ أرواحٍ، تودُّ الاقتراب منها:

«يا ربِّ، فإن وجدنا أنّا أسأنا الاختيار، أو أننا نملك أنْ نفعل أكثر،

أو عرفنا مِن تشابك الحياة بفعلِ الآخرين، أنّنا يمكننا الوصول للهدف بطريقةٍ أخرى، ما العمل؟ أيُقضى علينا عندئذٍ؟»

أجابه الربُّ:

«لكم عندي أن يكون الاتفاق غيرَ نهائيٍّ، فمن أراد منكم تغيير أيِّ بندٍ في العقد فما عليه إلا أن يدعُوَني وأنا سميعٌ قريبٌ، أستجيب.»

سأل أحدُهم:

«وكيف سنعرفُ أنّنا نسير في الطريق الصحيح نحو الغاية؟»

«كُلَّما أنصت أحدُهم إلى قلبه أكثر. وسيكون لكم شيءٌ تسمّونه (الضّمير)، أبقوه يقظًا حتى لا تتوهوا وسط الطريق. وأزوِّدكم بأمرٍ آخرَ: تمرُّون بتجاربَ، ترون أمورًا تظنّون أنّكم لم تشاهدوها من قبل وتهمسُ لكم أرواحكم «لقد شوهد من قبل/ Déjà vu» تَسطَع في الذاكرة لحظاتٍ، بأنّ ما جرى حَدَثَ قبل الآن، ولا تعرفون أين. كلّما رأيتم مثل ذلك أكثر، اعرفوا أنّكم تسيرون فيما خطّطتم له ووقَّعتم عليه الاتفاق أكثر. فما ضعُفت رؤيتكم، يكون قد تغيَّرَ مسارُ حَيَواتِكم، إمّا بفقدانِ أثر المسير، أو بفضل الدعاء، فأحسِنوا واعرفوا بما تدعون. من آثرَ السلامةَ وبقيَ على الاتّفاق سَلِمَ، ومن غيَّرَ بالدعاء فقد اجتهد ويلزمُه الحذر.»

كانوا يستمعون بأصفى ما تكون الروح، وأسرعَ ما يكون الفهم،

وأرقَّ ما ينفتح به القلب، سألت روحٌ من الأرواح:
"يا ربِّ، هل تتشابه وتتداخل الاتفاقيات؟ ماذا لو دعا اثنان بالدعاء نفسه؟ كأن يتزوج اثنان واحدةً؟ أو يتنافس اثنان على منصبٍ؟ أو يرغب اثنان بالعمل نفسه؟"
عَلَت همهماتٌ مبديةً إعجابًا بالسؤال، وتعالى همس الأرواح روحًا واحدةً قلقةً وكأنّ ذاكرةً ألمّت بها ممّا لاقت في حياةٍ سابقةٍ.
لم يرُدَّ الربُّ عليهم مباشرةً، فقد وصلتْ أخبارٌ من الجنّة أنّ أهلها يغفرون، بعدما رأوا النعيم، لبعض من آذَوْهم بألسنتهم أو في أموالهم. كلّم الربُّ الرسلَ من الملائكة، وأسرَّ إليهم بما يتوجب.
ثمّ كلمَّ الروح السائلة سابقًا مجيبًا:
"أكثروا الدعاء، ولا ينالُ ساعتَها أحدٌ شيئًا بغير أن يكون له أهلٌ، قد تتوارد الخواطر وتتشابك الرَّغبات وتتصارع لما سمعتموه هنا وتسمعونه من فضلٍّ أمنحه أو فكرة أختصُّ بها بعضكم فتسرق روحٌ الفكرة أو تسبق إليها بما يتبقّى لها من ذاكرة أوّليّةٍ، وفي النهاية، الأجدر هو من تتناسب خطة حياته مع رغباته."
ثم قال للأرواح: "والآن كلٌّ منكم منفرِدًا، سيعقد اتفاقيّته معي، مقرِّرًا مكوِّنات حياته الجديدة."

****

وقفت روح الراهب بين يديْ ربِّها، لا يسمعُهما أحدٌ ولا يراهما أحدٌ، كانت تلك الروح تتوجَّه نحو صوت خالقها الذي استدعاها لتَتَقدم، شديدةَ اللمعان، نقيةَ الأثر، متوهِّجةً تبرُزُ بين جموع الأرواح كأشدَّ ما يكون.

كلُّ الأرواح شعرت نحو روحِه بميلٍ وتآلفٍ، حتى إنَّ بعضهم قرَّر أن يكون طلبه في حياةٍ قادمةٍ أن يتقرَّب إليه، ويكون رفيقه، فروحٌ كهذه لا بدَّ ستوصلك إلى برِّ الأمان.

أُسدِلت ستائرٌ من نورٍ، وقال الربُّ لتلك الروح المشرقة:

- سلْ، تُعطَ.

- يا ربِّ، خجلي منك يمنعني السؤال، كلُّ ما أريده فرصةً أخرى، وامتحانًا آخر، تهبُني معه القوَّة اللازمة لأقاوم.

- أيَّ نوعٍ من القوة تريد؟

- قوةُ الإيمان، وقوةُ الأهل، وقوةُ الحُجَّة.

- لكنّك مقابلُ ذلك ستمرُّ بامتحاناتٍ ثقيلةٍ، فكلَّما مُنِحتَ أكثر كان الامتحان أكبر.

- يا ربِّ، كم تمنيتُ أن أعرِفك بقلبي وعقلي، وأعلِّم الناس ممّا علَّمتني، وأنفعهم في شؤون حياتهم وآخرتهم.

- أتريد أن تصير نبيًا؟

-حاشاك، وهل مثلي تليق به النبوة؟
- نعم، فقد جرَّبناك وكنت من أهل الصبر. حين قررت أن تكون نقيًّا تقيًّا، لم يمنعْك من ذلك شيءٌ، وكنت للناس نافعًا، لم يضرَّك في ذلك أحدٌ. حين تواضعتَ واعترفتَ أن القديسة نفعتك، وتقبَّلتَ النور الذي أعطيتُها، صرتَ أهلاً لتقبُّل النور المباشر أوحيه لقلبك.
- أيَّ الأنبياء سأكون؟
- ستكون نبيًّا ابن نبيٍّ ابن نبيٍّ، لتكون قويَّ الإيمان، وستكونُ في بيت رجلٍ عظيم لتكون قويَّ الرُّتبة. وسأجعلك نافعًا لقومٍ كثيرين.
- يا ربِّ، وفتنةُ النساء؟
- ستتعرَّض لها، وسنرى أتصبر أم تكون مِن الذين يقعون.
- تداركني برحمتك يا ربِّ، وسأنجو.
- لك أن أتداركك إذا همَّت نفسك، لكنّها لحظات، تشرقُ روحك فيها، فإمَّا أن تستجيب أو أن تسقط، هي لحظةُ عمرك الفارقة. إمّا أن تؤتى كلَّ شيءٍ أو تخسر كلَّ شيءٍ، فهل تقبل؟ أليس هذا ما أردت؟
- نعم، يا ربِّ قبلتُ ورضيتُ.
ثم خرج حيث تجتمع الأرواح.
ونُودِيَ على روح سيِّدة المنزل، كانت تعبر بطيئةً، باهتةً، حتى اختفت وراء حُجُبِ الأنوار.

- هذا أوانِك، فماذا تريدين لتُكفِّري عن ذنبك؟ وماذا تريدين لتثبتي توبتك؟ لقد أسأتِ كثيرًا لنفسك.
- ضعُفتُ أمامه.
- بل ضعُفتِ أمام نفسك، وحبَّك للسيطرة والتملك.
- زوجي كثير السفر.
- وأنت لم تصوني حرمة بيته. ولم تكتفي بذلك، بل كنت مُصرَّةً على الكذب والخيانة. لقد حلفت يمينًا عظيمًا كاذبًا، ثم قتلتِ نفسًا بريئةً، ورميت الفتى بالتهمة. أنتِ آثمةٌ، ولولا أنه غفر لك، لم تكوني لتُمنحي فرصة أخرى.
- كيف أُكفِّرُ عن ذنبي؟
- مثلُك لا يملك حقَّ الاختيار، فإمّا أن توافقي على الاختبار أو أن تعودي إلى مصيرِك المحتوم.
- كلّا يا ربِّ، أرضى بكل ما تَضَعُني فيه من امتحانات.
- ستظلين سيِّدة، زوجة سيِّدٍ عزيزٍ، وسيظل الفتى في بيتك، خادمًا عندك، ولكنه سيؤتى من الحُسْن الكثير، وعليك أن تصوني قلبك عن حبه، ولسانك عن عِرضه، وجسدك عن اقتحام جسده أو روحه.
- سأصبر.
- أسوقه إلى بيتك، تُربِّينه كابنك، ثم يكبر، وفتنتك أن تقاومي

الرغبة فيه.

- سأصبر، وسأعامله كابنٍ لي. ولن أمسَّه بسوءٍ.

- إن فعلتِ نجوتِ.

- يا ربِّ، وإن قصَّرتُ ثم استدركتُ؟

- تُعاقبين مُدَّةً، ثم أُكرِمُك لتوبتك، ويخلَّد ذِكرُك في سجل الخالدين. فهل أنت جاهزة لتوقيع العقد؟

- نعم جاهزةٌ يا ربِّ.

ثم خرجت بأبهى ممّا دخلت، وانتظرتْ مع المنتظرين.

نُودِيَ على ثلاث أرواح، لا تكاد لخُفوتِها يلحَظُها أحدٌ، فَاقْتيدَتْ إلى حيثُ الصوت، وحُجِبت وراء الأنوار. وقفتْ صامتةً متخاذلةً تتخبَّط، لا تكاد لِفرط ضبابيَّتها تَرى أو تسمَع شيئًا.

كان وجه الربِّ غاضبًا، نظر إليهم نظرةً، حتى صارت أرواحُهم كأنّها ضبابٌ.

- ما كنتم تستحقون مغفرة، لولا أنّكم كنتم في حياةٍ سابقةٍ أهلاً لروح أُحِبُّها، وغفرتْ لكم، وشفعتْ لكم عندي. عمّا قريب أُرسِلكم إلى حياةٍ أخرى، ومهما تختارون من حياةٍ فإنّكم ستشقَوْن فيها ولا تملِكون أن تُغيِّروا شيئًا ممّا أوقِعه بكم، فإن رضيتم بما أُوقعه بكم من مشقةٍ نَجَوْتم. وإن كفرتم أو سخِطتم ذمَمْتُكم ولم

تنالوا خيرًا.
إلّا أنْ يكون لك (وأشار إلى روح الأب)، أنْ نُقيل عَثْرتك ونعْذُرَك لمرضك.
بادرتْ روح الأب قائلةً، وانقطع صوتُه عن الروحيْن بجانبه:
- يا ربِّ، كنت مُقعدًا كسيحًا مريضًا، لو ملكتُ جسدًا قويًّا، لما سمحت لأحدٍ بأن يؤذي ابنتي. كنتُ أعملُ في الحقل جاهدًا لأطعم أسرتي. عفوك يا ربِّ.
- وكيف ستثبت زعمك؟
- اجعل لي من البنات ستة، وسأحفظهن جميعًا وأصونُهنّ كما تُصان الأميرات، وأفني عمري في سبيل أن يبلغن حياةً كريمةً هانئةً.
- لكَ ذلك، أتريد ما يُعينُك؟
- هبْ لي قوّةً في الجسد، حكمةً، لأتصرَّف جيدًا فلا أخذل أيًّا منهنّ يومًا.
- لك ذلك، هل لك مزيد طلبات؟
- لا، إلّا أنْ أملك من المال ما يُعينُني على عدم تَزويجِهنّ لثَريٍّ يقوم بأمورهنّ، فأفشل في مهمتي.
- ليس لك ذلك، فالفقر جزءٌ من اختبارك. هل بقي شيءٌ؟
- اجعل لي مِنْ بناتي نورًا يهديني إلى الطريق، واجعل لهنَّ أُخوةً

ذكورًا يكونون لهنّ عونًا بعد موتي، ولا تجمع بيني وبين هذيْن الرُّوحيْن في بيتٍ واحدٍ قط.

- الأولى لي لا وعد فيها، فلعلّ الذكور يفسدون حياتك ولعلهم يصلحونها، أمّا الثانية فهي لك لا أجمعك بِتَيْنِكَ الروحيْن في بيتٍ واحدٍ قط. وتمنح فوق ما طلبت شرف النّسب، وحسن الجوار، وصداقةً طيّبةً لبناتك.

ثم أَمر به فخرج مشرقًا بهيًّا حتى التفَّت حوله الأرواح تسأله عن أمره وكيف تبدَّل حاله هذا التبدل العظيم. وبقيت روحان هناك لا تريان ولا تسمعان شيئًا مما قيل أو يقال.

قال لهما الرب معًا:

- ليس لكما لِعِظَم ذنبكما أن تختارا شيئًا، فاقبلا أو ارفضا.

- نقبل يا رب، نقبل.

- لن تلدي، زمانًا طويلاً، حتى تشعري بطعم الأمومة، فإذا ولدت فهو ولدٌ مُعاقٌ، تمضين عمرك تسعيْن للحفاظ عليه.

قالت روح الأم:

- وما ذنب روحٍ بريئةٍ أنْ تُولَد معاقةً يا ربِّ؟ لا تعي شيئًا من شؤون الحياة، ويسخر منها الناس.

- هي روحٌ آثمةٌ، هي روحُ من اغتصب ابنتك. ذلك الوغد اللئيم

الذي سرق منها جسدها، فعل خيرًا واحدًا في حياته، لقد مرضت أمُّ صديقٍ له فانفق في سبيل علاجها حتى شُفيتْ، ولم يكن له في ذلك مآربَ أخرى. بها قبِلتُ عُذره، وأمنحه فرصةً أخرى.

- يا ربِّ، هل سأرى ابنتي في حياةٍ أخرى؟

- هذا أمرٌ لا تعرفينه ولن تعرفيه قطّ، لكنّ الأرواح جنودٌ مُجنّدةٌ ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. ستعرفين روحها وستألفينها.

ثم أُمِر بها فخرجتْ.

وقيل لروح الأخ القاتل:

- أنت أهملتَ أهلك، وقضيت حياتك تلهو، ثم جئتَ تعاقبها بذنوبك. سيكون لك أهلٌ، تحبّهم، وتفقد أباك وترعى أخواتك. سيكون لك أختان، وأم. أمك مرشدة خطاك ومعينتك في طريقك. هكذا تعوِّض أيّامك اللاهية التي قضيتها، وتبني أسرةً بدل التي هدمتها.

أخرجوه من هنا.

خرجت تلك الروح كما دخلت باهتةً كبخار ماء، شفافةً لكنها غير نقيّةٍ.

رَجَتْهُ أرواحٌ أخرى، أن تموت سريعًا، قائلةً إنّها خَبُرت نفسَها وعرفت عنها قلّة الصبر وسرعة اليأس، لم ترغب تلك الأرواح

بالبقاء طويلاً في حياةٍ جديدةٍ لأنّها عاجزةٌ عن تقديم الكثير. أرواحٌ أخرى طلبت سرعة الرحيل، ليس لأنّها ضعيفة، ولكنْ لأنّها أرواحٌ تشتاق سرعة الخروج من الدنيا للقاء الربِّ مرةً أخرى. لم تكن أرواحٌ سكنت نفوسًا خاطئةً، لكنّها أرواحٌ متوقِّدةٌ آثرت أن تعود إلى الحياة الدنيا لتنقذ غيرها من أنفسهم، وحين تتمّ المهمة فهي ترغب بسرعة الرحيل.

دخلت روحٌ حزينةٌ خلف الحُجُب، وشرحتْ ما جرى لها، والربُّ أعلم بما جرى، لكنْ أنْ تعرِض موقفك يريحك، ويعينُك على أن تفهم أنت ما جرى معك بشكلٍ أفضل، لتعرف مستقبلاً ما تريدُه أكثر. الربُّ ليس دكتاتورًا، إنّه يسمح لهم بالحديث ليقيم على كل روحٍ شهادةً، ولأنّ الإجابات لا تُعطى بلا أسئلةٍ، ولأنّ الحقائق لا تُكتشفُ بلا بحثٍ، كان يسمح للجميع بقول ما شاءوا. قالت تلك الروح:

"ربِّ، أمُّي تخلَّت عني، حينما ولِدتُ من زنًا، رمت بي للريح تعبث بي، تسوَّلْتُ طعامي، ونمتُ بين الرّكام، وحين كبرتُ لم أعلم حلالاً من حرام. قبلتُ بأولِ رجلٍ يقدِّم لي مائدةً من طعام، وأقدِّم له مائدةً من جسدٍ. أريد المال الوفير، والجمال، أريد أن أصبح مشهورةً."

-أيّ نوعٍ من الشهرة ترغبين؟

- أن أكون ذاتَ صوتٍ حَسَنٍ، فيطرب الناس لصوتي وأنشر الفرح بينهم، دون أن أكون مُلكًا لأحدٍ. أريد العيش بين قومٍ يسمحون لي بذلك ويتقبلونه مني.

- هل أنتِ واثقةٌ من ذلك؟

- نعم.

صعدت أصوات الملائكة التي تحمل العرش، طلب أحدهم الإذن بالكلام.

لم يُؤذن له، وردّ الرب:

- خلُّوا بينها وبين ما تريد، هي اختارت وهي تتحمل عاقبة اختيارها. هذا ظَنُّها بحياةٍ حرةٍ، بعد أن ذاقت حياة البؤس.

جاء وفدٌ من ملائكةٍ، يطلب الإذن بإيصال رسالةٍ من أهل النار.

كان طلبهم بسيطًا، أن يفتدوا أنفسهم بحياةٍ أخرى، يكونون فيها ضحايا الحروب أو الكوارث، أو ضحايا القتل أو حتى المجانين فيها، مقابل أن يحظَوْا بفرصةٍ يُثبتون فيها ندمهم على ما أساءوا به لأنفسهم وللآخرين.

- وهل يصبرون؟ (سأل الربُّ.)

ردَّت الملائكة:

- نسألهم يا ربُّ.

عادوا بعد برهةٍ قصيرةٍ، بأنّ هؤلاء يحتملون أيَّ شيءٍ لمدّةٍ من الزمان، أيَّ شيءٍ حتى يخرجوا من هذا الجحيم.
أمر الربُّ بهم فأُخرجوا، ووقفوا بين تلك الأرواح ينتظرون.
قال الربُّ بصوتٍ سمعته كلُّ الأرواح:
- نادوا على روح القديسة.
خرجت روحٌ ساطعةٌ كأنّها ألماسٌ يغشى العيون. تمنّى كلُّ من كان أن يحظى بقربٍ منها في حياةٍ أخرى ويسترشد بنورها لينفّذ خطة الربِّ فيه حتى منتهى شاطئ الأمان.
حُجبت بينها وبينهم أستارٌ من نورٍ لم يُر مثلها قبلها.
ثم خرجت بأشدّ ما يكون النور، حتى تمنّت كثيرٌ من الأرواح على الربِّ أنْ يكون غاية ما تتمناه في حياةٍ قادمةٍ أن يلتقوا بها، ويحظوا بقربها، ويتعلموا منها. رَجَتْ الربَّ روحٌ خاطئةٌ أن تكون لتلك الروح أمًّا، فهي لا تعرف كيف يكون المسير ولا الوصول، كانت تريد أن تتّخذ تلك الروح نبيًّا تتبعه حتى تصل إلى بر الأمان. ولَبِثَتْ الأرواح تنتظر مآلها.

****

عادتْ الملائكة تحمل مزيدًا من مطامع أهل النار. كان الربُّ يكتب في لوحه المحفوظ، وصرير القلم يجري بما يوحي له به.

لم يرفض استقبال رسل أهل النار من الملائكة.
(لن نقول "لأنّه يملك الوقت الكافي!" فهو سيّد الوقت يبسطه ويقبضه كما يشاء، إنّه بلا ظلٍّ يهرب منه ليلاً أو يدور مع عقارب الشمس نهارًا. إنّه ليس ابن الدقائق والساعات ليكبر معها ويخضع لها.
والأهم: هل الإله ساديٌّ لدرجةٍ، فلا يحفل بعذاب عباده؟ لماذا يعذبهم أصلاً إذن؟)
أَذِنَ لملائكته بالحديث، فقال أحدهم:
- يا ربِّ، إنّ طائفةً من عبادك أهل النار، ضاجُّون يطلبون فرصةً أخرى كما طلب غيرهم قبلهم ونالوا حظهم من رحمتك.
- وهل اعترفوا بذنبهم؟ وأقرّوا بظلمهم؟
- نعم يا ربِّ. وإنّهم مستعدون لأيّة تضحيةٍ يقدمونها تُخلِّصهم من جحيمهم، ولأيَّة فرصةٍ تثبت أنهم أحبُّوا الإنسان كما أحببته أنتَ. لقد علموا أنَّ مَن لم يحبَّ أخاه الإنسان فلا يحق له الحديث عن محبته لك.
تبسَّم الربُّ، وقال:
- البريء يطلب الحُكم بميزان العدل، والمسيء يطلب الحكم بميزان الرحمة، لهؤلاء خبَّأت رحمةً ما.
ثم سأل عن ذنوبهم، التي أدخلتهم النار (وهو أعلم بها منهم).

ردَّت الملائكة:

- من هؤلاء قومٌ خُلقوا كَمَا الرمال، وكان اختبارهم أن يتماسكوا أمام مطالب هذه الطينة الرمليّةٍ الطامعةٍ بالمزيد، دون أن يظهر عليها ارتواء، لكنهم سقطوا في فخّ الشهوات، فصاروا كالرمال المتحركة تبتلع كلّ ما يقترب منها، بحقٍ أو بغير حقٍ.

- ومَنْ غيرهم؟ (سأل وهو أعلم بهم.)

ظهر التردُّد على وجوه الملائكة، فصمتوا قليلاً، ثم تحدّث أحدهم:

- يا ربِّ، لسنا إلا سفراءَ يحملون لك رسالةً. إنّ من هؤلاء قومًا، للنفاق وهبوا أنفسهم، وللأقنعة أسلموا أرواحهم، فهم أبناء الخداع ومشتقاته، ظلموا عبادك وسلبوهم الحياة أو السعادة، وكذبوا عليهم باسمك أو نَغَّصوا صفو الماء في جوف عبادك بتأويل كلامك، تقوَّلوا عليك بما لم تقله، حاسبوا الناس على الصغائر ثم استتروا ليلاً من الناس يفعلون ما ينكرونه مِن الكبائر، ولا يستترون منك. ومنهم مَنْ أقسم باسمك أغلظ الأيمان لا يخون قومه ثم خانهم، ومنهم مَنْ سلَّطْتَه على البسطاء ليعدل فيهم فظلمهم.

تريَّث الربَّ قبل أن يردَّ عليهم:

- أغفر لهم جميعا ولا أبالي، غير أنّ الصارخين كلَّ يومٍ في الحياة السابقة، يسألون "أين الربُّ من كل هذا الظلم؟" سيعترضون

الآن لو غفرت لأهل النار. إن غفرت يقولون: «لا يبالي بنا ولا بمعاناتنا»، وإن عذبت قالوا: «ربٌّ ساديٌّ يستمتع بعذاب عباده.»
اعرضوا قضيتهم على من اشتكى منهم، فإن سامحوهم أمهلتُهم، وإلا فالشفاعات في المظالم مرفوضةٌ في حقٍّ من يُحِقّ الحقّ وسمّى نفسه الحقّ.
فانصرف الملائكة، يسألون المظلومين، ليقرروا مصير جلّاديهم، مذكِّرين إيّاهم بأنّ الله ينفي عن نفسه الآن تهمة الساديّة أو اللامبالاة، فهو يهتم بشكوى الظالمين، ويوافق على قرار المظلومين، ويوضِّحون لهم بأنّ صفة الساديّة في حقهم أولى إن رفضوا المسامحة، ليحثّوهم على المغفرة، فالرب يحب المغفرة ويجزي بها ما لا يجزي بالطاعات كلها.

****

قال الربَّ للأرواح المجتمعةٍ على صعيد الأعراف:
"ها أنتم تجتمعون هنا، وتأخذون فرصةً أخرى، لتستفيدوا منها، أو لتثبتوا أنّ خيركم يسبق شرّكم، وأنّ خطاياكم بنتُ ظروفكم القاهرة لكم، ها أنا أعطي منكم من أحبّ فرصةً أكبر ليريَني من نفسه أنّه ليس بعاجزٍ وأنّه لو أُعطي عمرًا طويلاً سوف يكون نبيَّ نفسه ونبيًّا خاصًّا لأهلِه يرشدهم إلى الخيرات. فكلّ من يحسن لنفسه ولعمله

ولرسالته يكون عندي محمودًا.
هئنذا أمنح الشهداء منكم، محبةً مِنّي وحياةً جديدةً يُستَشهدون فيها ليعودوا إليّ ليذوقوا لذّة اللقاء الأول بي مرةً أخرى، كما طلبوا. فأجملُ الحبّ ما كانت بداياته موتًا، ونهاياته لقاءً، وهذا ليس لكم فيه من دنياكم شيءٌ، فالحبُّ في دنياكم بداياته لقاءٌ ونهاياته موتٌ أو فراقٌ، بداياته لذّةٌ وخاتمته مؤلمةٌ، لأنّ الدنيا معكوسُ كلِّ شيءٍ هنا.
هئنذا أمهلكم فرصةً ثانيةً، لتعرفوني فيها أكثر، أُعطيكم لأجل ذلك، نورًا لأرواحكم، فلا تجعلوه يخبو بالغفلة، وصوتًا لضمائركم، فلا تخرسوه بالكسل، وذاكرةَ الطفل فيكم، فلا تفقدوها وسط زكام الأحداث.
أحببتكم لأنّكم صنيعتي، وسأظلّ أحبّكم وإنْ أخطأتم، فلا تضيّعوني من داخلكم وتنتصروا لذواتكم عليّ، فأنا خير من ينتصر لكم من أنفسكم. ولا تحزنوا إنْ قسوْت عليكم، فقسوَتُكم على بعضكم أشدّ.
الآن كُتِب في اللوح المحفوظ خُطّتي التي أعددتها لكم، كما طلبتم أنتم، ما غفلتُ عن صغيرةٍ ولا كبيرةٍ في حقّكم، وإنّي أعلم أنّ بعضكم سيسعى ليسرق رزق بعضٍ، فلا تبتئسوا، لا يكون في ذلك إلا خيرٌ، وأعلمُ أنّ بعضكم سيرغب بتحقيق هدفه من طريقٍ فأَختارُ له آخر خيرًا له منه، فلا تستعجلوا. ثقوا بي وظُنّوا بي خيرًا،

ولن أوتيَكم إلا خيرًا. فإنْ جزعتم فما لكم عندي غيرُ ما طلبتم وإنْ لم ينفعكم.

الآن تُطِلُّ أرواحكم من شُرُفات الغيب، على حياةٍ قادمةٍ، ترَوْن كلَّ ما سيكون، وكلَّ ما تروْن يكون في حياتكم الجديدة "ديجا فو" عابرةً تمرّ بكم كالحلم.

انفتحت شرفاتٌ، وأطَلَّت الأرواح منها كمصابيحَ معلقةٍ على شجرٍ، ترى كلُّ روحٍ حياتها التي اختارتها. ثم أُغلِقت الشرفات، وارتدّت الأرواح ملتفتةً نحو خالقها وهو يخاطبها:

الآن (أُفَرْمِتُ) ذاكرتكم، وستتعلمون في حياةٍ جديدةٍ من خلال ذاكرةٍ بدائيّةٍ تَصْحَبُكم، أنْ تصنعوا صنائعَ، فتمسحون ذاكرتها كما أفعلُ بكم.

وأَمنحُكُم مساكنَ جديدةً لأرواحكم، أجمِّلُها بقدْر حاجتكم لها وبقدْر ما تناسب خططكم لحياةٍ جديدةٍ. فلا يفرحْ أحدٌ بجمال جسده أو يحزن لقُبح شكله، فمن لا يتوصل إلى محبوبه إلا بالجمال منحته له، ومن احتاج الجمال ليخرج من بؤس حياته منحته له، ومن احتاج في عمله الجمال منحته له، فلا تُجمِّلوا أشكالكم ولا تعبثوا بما قدَّرتُه لكم، والجمال ليس بأفضلِ موهوبٍ، ولا بأشرفِ السُّبُل، بل أمنحُه لبعضكم فتنةً، وأَحرِم منه

من استغنى عنه وأَهبُه ما هو خيرٌ منه؛ فمنكم من ينال من المال، ومنكم من ينال من العقل نصيبًا، ومنكم من ينال حاجته في غير ذلك، فاعرفوا حاجاتكم تعرفوا أسرار نفوسكم وأجسادكم «ولا تتمنّوْا ما فضّل الله به بعضكم على بعضٍ[٦]»، فإن فعلتم فقد خرجتم عن الاتّفاق الذي كان بيننا، وسِرْتُم في دربٍ غير الدرب المُميّز الذي يوصلكم إلى السعادة أخيرًا.

****

سمفونيةٌ سماويّةٌ كانت تُعزف في تلك اللحظات، لو قُدِّر لها أن تُترجم لحنًا بشريًّا، لكانت موسيقى (لامبادا)[٧]؛ بداياتٌ مُتتاليةٌ، حبّاتٌ صغيرةٌ، أصغرُ من حبّاتِ خردلٍ، منثورةٌ في محارات الفراغ كلؤلؤٍ أسودَ. تتجمّع معًا، ثم تنفجر سريعةً كانفجار العَطْسة، جميلةً كانفجار الأنوثة في جسد الصَبيّة، تنتفخ كانتفاخ بالونٍ بشرائطه الملتصقة فيه. ثم تبدأ التفاصيل البهيّة بالظهور، مجرّاتٌ متشابهةٌ كَثَنْياتِ ثوبِ راقصةٍ إسبانيةٍ، ثمّ تفاصيلُ خاصّةٌ لكلٍّ منها، كأوتار

(٦) النساء: ٣٢.

(٧) (Lambada) إنها موسيقى راقصة من بارا، البرازيل، إذ أصبحت تلك الرقصة مشهورة عالميا في ثمانينات القرن العشرين، وبصفة خاصة في أمريكا اللاتينية ودول البحر الكاريبي، إذ تحتوي تلك الرقصة على مزيج من نواحي الرقص منها على سبيل المثال: الفيرو والصالصا، والميرينجي، والماكسيكسي، والكاريمبو.

الجيتار؛ لكلٍّ منها لحنٌ خاصٌّ تأتلف لتصنع مقطوعةً مُنسجمةً. تتكرّر التفاصيل، ثمّ تتوسع. يعقُبها شفافيةُ الأغلفة وجماليةُ الأقمار، وبهاءُ الغبار الكونيّ المنثور. ونيازكٌ وشُهُبٌ، وانحناءاتُ الأفلاك في مداراتها، كالتفاف الرّاقصة على نفسها، وصعودٌ وهبوطٌ وتقاربٌ وتباعدٌ. رَشَّةُ مُشابَهةٍ هنا، ورَشّةُ اختلافٍ هناك. ثم تتكرّر المجرّات، وتتوسّع المدارات، وتبدأ صياغة التفاصيل؛ كنحّاتٍ حاذقٍ أجاد رسم محبوبته، أو كمصمم أزياءٍ ماهرٍ أتقن دراسة انحناءات جسدِ فَتاتِه فألبسها ثوبَ رقص إسبانيٍّ بارعٍ.

سحبٌ، وأشجارٌ ومياهٌ وأقمارٌ، مسافاتٌ دقيقةٌ وحساباتٌ عميقةٌ، كدِّقة خطوات الراقصة، أو كحُسن انسجام عازفها مع لغة جسدها، أو حتّى كتمايُل قلبك مع عزف نايَاتِها لو شئت! ما شئت كما شئت، لكنّها سمفونيةٌ كونيّةٌ بديعةٌ، لم تكتفِ بالدّقة، بل أَتْبَعتها بالجمال، الذي يمنحه من ابتغى الكمال.

تكرارٌ في الخَلْق لا يبعث على الملل فهو يتكرّر في صعودٍ أو هبوطٍ، كتكرار المقطع بأكثر من سُلّم موسيقيٍّ؛ مثل (لامبادا) تتكرّر مقاطعها لتثير قلبك أكثر، وهذه تتكرر لتثير عقلك أكثر وأكثر.

كانت تلك السمفونيّة السماويّة تهتمّ بأدقّ التفاصيل حتى عددِ حبات الرمل، ومستوى منسوب مياه البحر، ومواسمِ الحشرات،

وهجرةِ السُّنونوات، تهتمّ بما يثير كلَّ شيءٍ فيك، حبَّك وخوفَك وغضبَك وحزنَك وألمَك وفرَحَك وشوْقَك وفضولَك وقلقَك واشمئزازَك وحتى بلادتِك ولا مبالاتِك، تهتمُّ بألّا يفوتك شيءٌ من مشاعرَ تتولّد فيك من شيءٍ تُصادفه، فحزينٌ جدًا وخسارةٌ كُبرى ألّا تدرك كلَّ ما يمكن إدراكه.

****

كانت التفاصيل الدقيقة تُنثر هنا وهناك باهتمام، كما تهتم (لامبادا) حتى بحذاءِ الراقصة، وبلونِ كُحل عينيها، وعددِ ثنيْات ثوبها، وظلال جفونها، وموعد هطول ابتسامتها. كما تهتم (لامبادا) بقفزات قلبك كلِّها، وترميم شبكة الإنارة في حجرات ذاكرتك كلها.

كان الربُّ يعزف سيمفونيّة خلقِ الكون، والوجود كلِّه، بضرَباتٍ بديعةٍ، ولم يكن الربُّ أنانيًّا، إذ لم ينسَ في ذلك الشعراء والرسامين والمعماريين، فقد ترك لهم مساحاتٍ بيضاءَ فارغةً ليملؤها بخيالهم الجامح. كأنّه يختبرهم بتحدّيه لهم ليصنعوا أبدع مما صنع.

كان الكون بين يـديْ الـربِّ، كمدينةٍ مزدحمةٍ بالتناقضات المستريحة على أرضها كاستراحة وردةٍ حمراءَ في شعرٍ أبيضَ. لكنّ هذه المدينة الضخمة تبدو صغيرةً، صغيرةً جدًا، أصغرَ من لقمةٍ في فم النملة للناظر من نافذةِ طائرةٍ تُحلّق عاليًا فوق الغيوم

في السماء.
كان الكون أشبه بحوض نعنعٍ، تراه «أم سليمان- الحشرة التي امتصّت رحيق شقائق النعمان فصارت ابنتها في الرضاعة، وصار لها لونها الخمريّ المختلط بالسواد» تراه كلَّ الكون لضخامته في عينها (هكذا الكون في عين الإنسان) ويراه سيّد الحوض صغيرًا، لدرجة أنّ قفزةً منه تجعلُ الحوضَ خلفه (هكذا كان الكون بين يدي الرب.)
غابةٌ من الملائكة التي أُذِنَ لها بالتواجد، تصطفّ، تشاهد وتمجّد وتنشد:

سبحانَ الخالقِ في عُلاه
الكونُ ما صنعتْ يداه
فكيفَ يا أيُّها الإنسانُ
تكفر يومًا بالإله؟
سبحانَ الخالقِ في عُلاه
وهبَ الموتَ والحياة
الفُلْكُ في دَوَرانِها
والشمسُ في جَرَيانِها
والنهر في سَرَيانِه

كلٌّ من صنع الإله
فتأملِّ الكَوْنَ الفَسيح
هل عينُكَ تَبْلُغُ منتهاه؟
سُبْحانَ الخالِقِ في عُلاه
لَيْسَ لَهُ أَشْباه
فاعْبُدْهُ لا تَعْبُدْ إِلَّاه

****

بعدما خلق الربُّ الكون أكوانًا، أَذِنَ للملائكة التي شهدت خلق السموات والأرض، بأن تشهد خلق الإنسان.

تعجّبت الملائكة، التي رأتْ فساد الإنسان سابقًا في حياةٍ سابقةٍ، فهي لم تكن تعرف شيئًا عن خطة الرب، لم تكن تعلم أن هؤلاء المُنظَرين، إنّما أعطوا فرصةً جديدةً لحياةٍ أخرى.

تساءلت الملائكة بدهشةٍ: «يا ربِّ، أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟!»[٨]

قال أحد الملائكة: «يا ربِّ، كفروا بك وعبدناك، عصوْك وأطعناك. إن خلقتهم للعبادة فنحن نعبدك خيرًا منهم، نسبّحك ونقدّسك ولا نَمَلُ ولا نَفْتُرُ مطلقًا. وإن كنت خلقتهم ليعرفوك، فلن يعرفوك

(٨) البقرة: ٣٠.

قَدْرنا، رأيناك وشهدنا قدرتك في خلقك، وأمرتنا فعبدناك.»
ردّ الربُّ، مجيبًا عن كلِّ ذلك: «إنّي أعلم ما لا تعلمون.»
سكتت الملائكة، لقد حاججهم الربُّ من حيث لا يحتسبون، لقد ذكّرهم بضعفهم (العلم!) فالملائكة لا تعلم، هي مأمورةٌ وهي مسيّرةٌ، تملك حقّ التساؤل، ولكنّها لا تملك حقّ الاختيار، تملك حقّ معرفة القائم والموجود، لكنّها لا تعلم ما يمكن أن يكون إلّا بعد حصوله.
باختصارٍ: الملائكة لا تعلم وتفتقر للعلم لأنّها لا تملك خيالاً مثل الإنسان. فالخيال أو التّخيل (بمعنًى أدقّ)، هو الحصان الذي يجرُّ عربة العلم والتقدم ويدفعه للأمام.
والملائكة لا تملك حقّ الخطأ، والقدرة عليه، فهي من نورٍ لا يمكنها أن ترى الظلام. الإنسان يقدر على رؤية الظلام، لذا هو قادرٌ على تمييز النور من الظلام، ومعرفة الخير من الشر وإدراك الصواب من الخطأ، ثمّ الوصول إلى النور وإلى الله، على علمٍ وباختيارٍ مطلقٍ حرٍّ.
تهامست الملائكة: «إذن القضية ليست قضية عبادةٍ! وإلا لكُنّا أولى بما خصّ به الربُّ الإنسان.»
قال الربُّ، وهو يسمع همسهم: «أنتم تعبدوني بالصلوات والتمجيد

والتسبيح، أمّا الإنسان فيعبدني بأنْ يخطئ ثمّ يرجع إليّ، وبأنْ يبحث عنّي قبل أنْ يصل إليّ، وبأنْ يملك حقّ الاختيار ليكون حرًا في عبادته لي. الإنسان مُمجّدٌ لأنّي أعطيه بعض صفاتي، وأنفخ فيه من روحي، وأمنحه العلم الذي يؤهله ليفهمني أكثر، فيحاكي ما أصنع، ثم أترك له أن يفعل بكلِّ ذلك ما يشاء.»

تنحنح واحدٌ من النخبة التي شهدت الخلق، وسمعت منطق الحقّ، حينما اعترضت إيمانَه جلطةٌ فكريّةٌ أوجعتْ صدره. لكن الربَّ يشمّ روائح الغيرة المنتنة كما تشُمّون رائحة الثوم في الأفواه صباحًا. فقرّر فضحه ليشهد على نفسه؛ فحينما أتمّ صنع هذا الإنسان أمر الجميع أن يسجد له ليختبرهم به، لكن الجلطة الفكريّة، ثومُ القلب كان قد مشى في الشرايين وتحول إلى رائحةٍ، والرائحة لا يمكن لَمْلَمَتها فهي لا تزول بسهولةٍ، رفض إبليس عظيم الملائكة السجود، كان يبكي من الداخل وسياط الحيرة تعذّبه. سأله الرب مقيمًا الحجّة عليه: «ما منعك ألّا تسجد؟[٩]»

ردّ عليه: «هذا خلقٌ بدائيٌّ خلقتَه من طينٍ، إنّه لا يملك من العلم شيئًا، يمكنني أن أُغويَه بأقلّ مجهودٍ، يمكنني أنْ آمُره فيطيعني ويعصيك. كيف تفضّل خلقًا حقيرًا بدائيًّا كهذا عليّ؟ يجب أن

(٩) الأعراف:١٢.

يسجد هو لي.»

ردّ الربُّ: «نعم هو خلقٌ بدائيٌّ، لكنني أهبُه القدرة على التطور، ليصير خيرًا منك وأعلم منك.»

رد إبليس ضاحكًا: «وأكثر شرًا منّي!»

كانت الأمور تسير وفقًا لما قُدِّر لها؛ هذا العظيم «إبليس» تطوّع ليكون الظلام الذي به يعرف الإنسان النور. إنّه أيقونة الشرّ، أو شمّاعة الضمير، أو مرآة الرغبات الداخلية.

كانت الملائكة، في حيرةٍ عظيمةٍ، إذ كيف يسمح الربّ بتسليط هذا العظيم، ذي العلم الكبير على ذلك المخلوق الضعيف الذي أحبّه الربّ، كيف وهو العادل يسمح بتسليط خلقٍ قويٍّ يملك كل الأسلحة على خلقٍ ضعيفٍ لا يملك سوى تعاطف الربّ معه؟ لم يفلح الإنسان في حياةٍ سابقةٍ، ولم يكن مِنْ شرٍّ يوسوس لهم ويغويهم سوى أنفسهم، فلماذا يُصعّب المهمة عليهم الآن؟ كيف سيفلحون؟ سألوا الربَّ عن ذلك، فقال: «كلُّ فرصةٍ ثانيةٍ تكون أصعب، هم تذرّعوا بأنّهم مهما كانت الحياة صعبةً فسوف يقاومون الشرّ مهما بلغ شأوه. إنّ الشر الخارجيّ لا صدًى له ما لم يجِد جدرانًا تحتضنه في الداخل.

وهل سلَّطتُ أحدًا على إبليس؟ هل أحتاج لمن يوسوس له ليكون

بهذا التكبر الذي استحق معه الطرد من جنة الرحمة؟ كلُّ إنسانٍ إبليسُ نفسه، وما إبليسُ إلا ماءُ السماء، يسقي بذرة الشر، أو بذرة الخير في الإنسان.»

– يا ربِّ، عرفنا كيف يسقي بذرة الشرّ، لكن كيف يسقي بذرة الخير، وقد أعلن العداوة وأظهر البغضاء للإنسان؟

– بعض الشرّ لقاحٌ ضدّ كلِّ الشر. الشرُّ سيجعلهم أقوى في الخير، وسوف أمنحهم مغفرتي حين يضعُفون ثمّ يرجعون إليّ. كيف يحذرُ الشوكَ من لم يُدْمِ أصابعه به يومًا؟ كيف يتجنّب حرّ الشمس وبرد الشتاء منْ لم يذقْ قسوتهما؟

ثم أراد الرب أن يعلّم الإنسان أول درس يورّثه لذريّته، فأمره ألّا يأكل من شجرةٍ محددةٍ، وأَذِنَ له بالأكل من كلِّ الثمرات. لكنّ الإنسان لم يصبر، فهو لم يختبر الشرّ بعدُ، ولا يعرف عواقبه، ولا يعرف كيف يميّزه أو يقاومه، فعصى وأكل من ثمرة الشجرة المحرمة، فعرف الربّ أنّ الإنسان صار جاهزًا للدرس الثاني، وهو الرجوع عن الخطأ، فعلّمه كيف يتوب. ولأنّ الصراع قد بدأ، فقد خرج من جنة الرضا المطلقة، وبات مرهونًا بأعماله وأفكاره.

الملائكة التي شهدت كل ذلك، تقدمت باحتجاج، منحازةً فيه للإنسان، ضدّ إبليس الذي رأته يتحدّى الربَّ، فقالت: «يا ربّ،

نحن نعلم أنّه عصاك، بعدما أكرمته وأحببته، ولكنّ ذنبه لا يعادل ذنب إبليس، فلم تطرده من جنة رحمتك؟»

– الذنب بقدر العقل، كما الأجر بقدر المشقة. ما زال عقله ضعيفًا، ما زال أمامه الكثير ليتعلمه حتى يتطور كي يحصل على بعض صفاتي، ويحاكي ما خلقت ليعرفني به أكثر. لكنني أعاقبه الآن بمقدار قوته، كان يمكنه تجنب الوقوع في الخطأ، لكنه لم يفعل. لقد فشل في الامتحان المناسب له، وهذا مُقدّرٌ، حتى يتعلّم كيف يخطئ ثم يتوب ويرجع إليّ. كلاهما: الإنسان وإبليس، استويا في المعصية لأنّي لا أنظر إلى الذنب ولكني أنظر لمقدار الوعي فيه والقدرة على تجنبه.

– يا رب، فلِمَ تغفر للإنسان ولا تغفر لإبليس؟

– من اعترف و تاب فإنّي غفورٌ رحيمٌ، ومن عصى وأبى فإنّي صبورٌ حليمٌ. وهل تُلام نحلةٌ ضلّت طريقها بحثًا عن العسل؟ وهل يُغفَر للصِّ دخل بيت الربِّ هاربًا ممّن سرقهم؟

صمتت الملائكة، كان عليها أن تصمت لتفهم أكثر، فهي لا تملك قدرةً على التوقُّع. كانت الحياة على الأرض تزدهر وتكبر، والصراع يتنامى، والإنسان يتطور.

هكذا بدأت حياةٌ أخرى، على الأرضِ، بل على الأرضين!!

الفصل الثالث

«أكوانٌ مُتوازيةٌ»

«لِنَشْهَدَ على أَنْفُسنا بما دَافَعْنا به أَمامَ الله»
«حُكَّ أُسطُورةً تَجِدْ حَقيقَةً»

أكوان متوازية (Parallel Universes)[١٠]:

كان ياما كان، وكلُّ ما كان امتدادٌ لما يحدث الآن...

---

(١٠) هو عبارة عن المجموعة الافتراضية المكونة من عدة أكوان - بما فيها الكون الخاص بنا - وتشكل معاً الوجود بأكمله. والأكوان المتوازية، نتيجة لبعض النظريات العلمية التي تستنتج في الختام وجوب وجود أكثر من كون واحد، وهو غالباً يكون نتيجة لمحاولات تفسير الرياضيات الأساسية في نظرية الكم بعلم الكونيات. تسمى أحياناً (متعدد الأكوان/ (Multivere وبنية متعدد الأكوان، وطبيعة كل كون بداخله، والعلاقة بين هذه الأكوان - تعتمد على النظرية المتبعة من بين عدة نظريات، ومتعدد الأكوان مفترض في علم الكونيات والفيزياء والفلك والفلسفة واللاهوت والخيال العلمي. وقد تأخذ الأكوان المتوازية في هذا السياق أسماء أخرى كالأكوان البديلة أو الأكوان الكمية أو العوالم المتوازية أو الوقائع البديلة أو خطوط الزمن البديلة، إلخ، وأول ما بدأت، كان عام ١٩٥٤ على يد (هيو إيفريت) من جامعة برنستون المرشح للدكتوراة، ثم كبرت على يد العالم ميشيو كاكو، الذي فسر نظرية الأكوان المتوازية من خلال نظرية الأوتار.

كان بديعًا أنْ يُصنع عملٌ كاملٌ، والأكثرَ إبداعًا صناعةُ مثله، أو خيرٍ منه. في ثلاثة أكوانٍ متوازيةٍ، بدأ الخَلْقُ، وكانت الحياة، بل الحَيَوات. في كلٍّ منها إمكانياتٌ هائلةٌ، وقدراتٌ فائقةٌ، وفروقٌ شاسعةٌ، وقوانينُ خاصّةٌ. تختلف القوانين فتختلف النفوس وتتفاوت موازين العدل.

لعلّ التفاحةَ؛ طبيبَك اليوميَّ هنا، تكونُ حَجَرَ بناءٍ هناك، ولعلّ حِبْر الكتابة هنا هو نفسُه ماءُ الشرب الذي يُلوِّن بَشَرَتَهم أزرقَ أو أسودَ هناك، ولعلّ استعلاء الذكر على الأنثى هنا، يقابله أن يكون للأنثى مثلُ حظِّ الذّكريْن هناك.

وفي كلِّ كونٍ، انتظم الخلق في تفاعلٍ بهيجٍ ليظهر أثرُ الفراشة[١١]

(١١) (Butterfly effect)، إن مصطلح أثر الفراشة في النظريات الفيزيائية والفلسفية وغيرها من فروع المعرفة، هو استعار لفظية، أو مصطلح مجازي، يستخدم للتعبير عن مفهوم الاعتماد الحساس والمهم للحدث على الظروف الأولى المحيطة له في نظرية الشواش وتطبيقاتها في العلوم المختلفة. وهذا المصطلح يأتي للوصف المجازي لحالة ما، وليس لتفسير الحالة. ويشير هذا المصطلح في الأساس إلى أن الفروق الصغيرة في الحالة الأولى لنظام متحرك – ديناميكي– قد ينتج عنها في المدى البعيد فروقات كبيرة في تصرفات وسلوكيات هذا النظام.

وهذا التعبير المجازي يوصف تلك الظواهر ذات الترابطات والتأثيرات المتبادلة والمتواترة التي تنجم عن حدث أول، قد يكون بسيطا في حد ذاته، لكنه يولد سلسلة متتابعة من النتائج والتطورات المتتالية والتي يفوق حجمها بمراحل حدث البداية،

فيه، كما تقتضيه الحركة المتناغمة أو النشاز في سيمفونية الوجود.
في كونٍ، تمضي الحياة، تشرق شمسها وتَغْرُب، وتَهطُل الأمطار من السُّحب، وتتجلّى الحياة في تعاقب الفصول.
في كونٍ موازٍ آخرَ، تمضي الحياة، ولا يظهر للشروق والغروب أثرٌ، لكنْ يمضي الزمن بتعاقب الكواكب وإشراقات النور المتبدِّد بانتظام في الكون من أَثَرِ فُسيفساء التجويفات الكونية، ثقوبٌ سوداءُ في كونٍ، قد تعني فجواتٍ بيضاءَ هناك.
في كونٍ موازٍ ثالثٍ، تكون الأجساد سائلةً تمشي على الماء وتبني قصورًا في الهواء، وتغرق في شبرٍ من ترابٍ.
فاستعنْ بخيالك لتفهم الفَرْقَ، ولِتُدْرك أثرَ الفراشة في كلِّ كونٍ منها.

وبشكل قد لا يتوقعه أحد، وفي أماكن أبعد ما يكون عن التوقع، وهو ما عبر عنه مفسرو هذه النظرية بشكل تمثيلي يقول ما معناه، إن رفرفة جناح فراشة في الصين قد يتسبب عنه فيضانات وأعاصير ورياح هادرة في أبعد الأماكن في أمريكا أو أوروبا أو أفريقيا.

والمثال المشهور والذي يصور فكرة أن سلوك النظام المتحرك يعتمد على فروقات بسيطة في مراحله الأولى هو مثال الكرة. إذ عند وضع كرة ما في أعلى تلة ما، يمكن أن تتدحرج في أي اتجاه بناء على فروقات صغيرة في موضعها الأول.

وظف هذا المصطلح المجازي كثير في الكتابات الأدبيةً فمثلا حدث في لحظة ما قد يغير حياة شخص بأكملها.

الأرض (١):

- هذه هي القصة باختصارٍ، وهذه العِبرُ فيها واللطائف..

- خالتو، أنا أعرف قصته، أخبرنا بها الأستاذ، وسمعت ما قلتِه لي في التلفاز.

تظهر عليها علامات التعجب، أبدت إعجابها بابن السبعة عشر ربيعًا، إذ استمع دون مقاطعةٍ لها طوال تلك المدة، وهي تروي له لطائف قصة النبي يوسف، فالشباب في هذا السّن نَزِقٌ، لا يصبر.

شعرتْ ببعض الخجل، سألت نفسها: «ما السؤال إذن؟ ما المطلوب؟»

سألته بابتسامةٍ جذلةٍ، بعدما قبّلت خدّه:

- حسنًا، ما الذي لا تفهمه من القصة إذن؟ قلت لي إنّك تريد أن تعرف قصة النّبي يوسف.

- أعرف ما قلته لي، لكنّني لا أفهم لماذا أنقذه الله؟

- لأنّه نبيٌّ! (قالت باستغراب.)

- لو أنّ شخصًا غير النبي يوسف، كان في الموقف نفسه، هل سينقذه الله؟

صمتَ يوسف قليلاً، وحين همّتْ بالإجابة، همّ بالتساؤل فسكتتْ، فسكتَ. فحثّته على إكمال سؤاله، قائلةً:

- قلْ كلَّ ما عندك لأفهم ما يحيّرك بشكلٍ أوضحَ.
مدّ جسده للأمام، وضمّ رؤوس أصابعه، كأنّه يستحثّ خالته لتنتظر، ثم قال بتركيزٍ شديدٍ، كأنّه محامٍ يستجوب شاهدًا:
- ألم تقولي إنّه نبيّ؟ وإنّ الأنبياء معصومون؟ يحميهم الله من الوقوع في المعصية؟
- أها!؟ (ردت خالته الشابة بابتسامةٍ وهي تهزّ رأسها إيجابًا.)
- لماذا يمنحه الله الثواب؟ ما دام هو قد حماه؟ لم يفعل النبي يوسف شيئًا.
لحظة صمتٍ مرّتْ، ثم أكملَ:
- لنفترض أنّ النّبي يوسف قد فعل العكس، وعصى الله.
قاطعته بسرعةٍ: «لكنّه لم يفعل!»
ردّ بعصبيةٍ: «لنفترض جدلاً، لنفترض فقط! أنّه عصى الله، فهل سيعاقبه الله؟ هل الله هو من جعله يعصي كما جعله يطيع؟ هذا ما لا أفهمه. إنْ كان قد تجنّب الخطأ لأنّه معصوم، فهل يُثاب على ذلك؟
نظرت إليه بدهشةٍ وبريبةٍ.
ابتسم، وسألها: «لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ هل كفرتُ؟»
أخذت نفسًا سريعًا، وقالت مؤكدةً: «لا، أنا فقط مندهشةٌ.»
ضحك، ثم قال: «أنا لا أشكّك في شيءٍ، فقط أريد أن أفهم علاقة

عصمة الأنبياء، بالثواب والعقاب. ولماذا اختاره نبيًّا هو بالذات مثلاً؟»
ضحكت مليًّا، ثم قالت: «ألِأنّ اسمك يوسف مثله؟ لعلك تشتهي أن تكون نبيًّا؟»
- لا، الأنبياء حياتهم صعبةٌ.
- إذنْ فقد وصلت إلى نصف الإجابة.
- كيف؟
- الأنبياء حِمْلُهم ثقيلٌ جدًا، وبلاؤهم شديدٌ، لأجل ذلك يعصِمُهم الله، ما بلّغوا رسالات الله.
- لم أفهم! (قال باحتجاج وتحدٍ.)
نظرت من نافذة الشُّرفة الزجاجيّة، تتأمّل صفاء السماء، ثم تناولت كتابها، تقلِّب فيه دون أن تنتبه لما فيه.
لوّح بيده لها، ثم فَرْقَع بأصابعه، انتبهت وابتسمت. علّقت: «كأنني رأيتُ أو سمعتُ ما قلته من قبلُ.»
ثم قالت:
- لِنَعُدْ إلى موضوعنا. حين أعطيك مهمةً ثقيلةً، لا بد أنني سأكفيك مؤونة أيّة مشاغلٍ تشغلك عن مهمتك طالما أنت ملتزمٌ بها. حينما تطالبك أمّك بالتفوّق، لا بد أن تغضّ الطرف عن بعض إهمالك في غرفتك. أليس كذلك؟

ابتسم بخجلٍ، حينما خطف نظرةً سريعةً إلى يساره متذكّرًا شكل غرفته. تابعت ابتسامتَه، لأنّها أدركت سرّ نظرته.

هزّ رأسه برضًا مؤكدًا أنه فهم الفكرة. ثم قال بعد تفكير، وقد بدَتْ عليه حيرةُ محققٍ أمام معضلةٍ جديدةٍ. فكلُّ سؤال يستنبت فَسِيلَ سؤالٍ في الرأس.

- ما هو العظيم في قصة يوسف -عليه السلام-؟ كان بلاؤه الوحيد أنه رفض الاستجابة لزوجة العزيز، كثيرٌ من الرجال يرفضون إغراء النساء. عفّة الرجال أمرٌ شائعٌ.

- جوهر القصة يا خالتو، التّمرّد وليس العفّة فقط.

حرّك يده دائريًّا كمن يقلّب صُواع قمح باحثًا عن خاتمٍ ضائعٍ، حاثًّا إياها على التوضيح. فقالت:

- النّبي يوسف، رفض إطاعة أوامر سيّدته، لا تنس أنهم (اشتروه)، لاحظ: «وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته[١٢]»، بمعنى أنه مملوكٌ لهم، عليه طاعة الأوامر. العظيم فيما فعله، أنّه رفض إطاعة أوامر سيّدته رغم عواقب الرفض الشديدة. لقد تمرّد على الأوامر مقابل ألا يعصي ربّه. لم يكن يملك حقّ الاختيار، ولا حقّ الرّفض في عُرْفِ سيّدته. هنا يكمُن الفَرْق.

(١٢) يوسف: ٢١.

لو أنّ رجلاً آخرَ عرضت عليه امرأةٌ، أيّة امرأةٍ أن يمنحها جسده، ورفض، فلا عواقبَ خطيرةً لذلك، لأنّ جسده ملكٌ له. لكنْ تخيّل أن يرفض جنديٌّ أوامر الضابط، أو أن يرفض مواطنٌ أوامر الملكة.

- كالفرق بين أن أعصي أوامرك، وأعصي أوامر أمي.

ثم ضحك.

- غِلِس! أنا خالتك الكبيرة، عليك أن تطيعني.

ضحكا معًا.

****

الأرض (٢):

في عالمٍ موازٍ آخر، على أرضٍ أخرى، جلست الخالة وابن أختها يتسامران في قصة النبي يوسف. كانا يجلسان على مقعدِ قوس قزح، وقت العصر، بعد جهدٍ في قطف ثمار حبّات المطر. سألها:

- خالتي، اليوم كنت أقرأ القرآن، وخطر لي سؤالٌ غريبٌ يلحُّ عليّ حول النّبي يوسف -عليه السلام- لعلّني أجد عندك الجواب الذي يريح نفسي. لكن لا تغضبي.

ابتسمت:

- أنت تعرف أنني لا أغضب إلا قليلاً.

- أعرف أنّك لا تحبين كلمة (لو)، وافتراضاتِ المُشابهة، لكن

لنقل مثلاً: لو أنّ النبي يوسف لم يخرج من البئر ولم يَعُدْ إلى بيت أبيه، هل سيظل نبيًّا؟ لو أنّه كذلك لم يرفض مهادنة امرأة العزيز حينما أمرته بالمثول بين يديها في مصر بعدما كان جمالُ وجهه قوسَ قزح يملأ الأرض يراه الجميع ولا يطوله، وبعدما اشتهر بتفسير الأحلام. لنقل: لو أنّه قَبِلَ الذهاب إلى مصر، ولم تحرم قومه المِيرة، ألا ينقذ هذا الطرفين؟ ما العبرة في قصة النبي يوسف -عليه السلام-؟

- العبرة هي أنّه يقبل بكلّ ما قدّره الله. الرضا بقضاء الله لا يجلب إلا خيرًا. في النهاية رأيت كيف انتصر عليها.

- ماذا لو قرر أمرًا آخر؟

- ما كان له أن يفعل. ألا ترى أننا في أحيانٍ كثيرةٍ نقرّر ونصمّم ونسعى، ثم لا يحصل أخيرًا إلا ما أراده الله؟!

- لماذا يحاسبنا الله إذن ما دام قد قرّر عنا كل شيء؟ (سأل بنوعٍ من الاستهجان والسخرية الخفيّة.)

ردّت بحزمٍ واثقٍ كثقة الابن في أبيه:

- يحاسبنا على النوايا، والصبر والرضا. ما كانْ، لا يتغير. لكننا لو قبلنا فَلَنا أجرٌ، ولو سخطنا فليس لنا إلا الوِزر وما كان سيكون بلا تغييرٍ. فلا السخط يبعده، ولا الرضا يقربه.

- كم أثّرْت فيك قصة النبي يوسف؟

صمتت قليلاً تستعرض مشوار حياتها؛ فهي لم تكن ممن يؤمنون بالمقاومة كَحَلٍّ، كانت إذا مرّت بها أزمةٌ خانقةٌ أو كربٌ عظيمٌ، تركب سجادة صلاتها كبساط ريح تسافر فيه عبر الحياة، كانت سجادتها بالنسبة لها رادارًا يكشف لها الخطر والطريق.

لم تكن تلجأ للدعاء، لأنها من جماعةٍ ترى الدعاء نوعًا من اعتراضٍ على إرادة الله، فلسفةُ حياةٍ! فإذا نوقشت في ذلك بأنّ الدعاء مخّ العبادة، لا تزيد على الدعاء بقولها: «الله يجيب الخير، اللهمّ لا اعتراض.»

هكذا أمضت حياتها هادئةً، رادارُها «سجادةُ صلاتها» لم يكن يكشف لها طريق المستقبل، رادارُها لم يكن يستشرف المستقبل، كانت وظيفته تتوقف عند كشف طريق السلامة، دومًا كانت تُؤثِر طريق السلامة. هل هذا خمولٌ؟ سئلت مرة إن كانت تعدّ نفسها خاملةً، لا تقاوم ولا تتفاعل مع الحياة، أجابت إنّها رمزٌ للمقاومة إذ تقاوم الاستسلام لليأس والشك معًا. هي قويّةٌ في نظر نفسها، لأنّها تواجه الريح بإيقاعٍ ثابتٍ، ونفسٍ هادئةٍ موقنةً بأنّ الله يغيّر من حالٍ إلى حالٍ.

- خالتي، كم أثّرت فيك قصة يوسف؟

أخذت نفسًا عميقًا حين زنّ صوته يمتصّ رحيق تأمّلاتها، وقالت:

- كثيرًا، كثيرًا جدًا.

- كيف؟ أحتاج لأن أفهم العبرة في قصته أكثر.

- يوسف النبي وقف في وجه الغبار كجدارٍ، بقي صامتًا صامدًا حتى أتاه نصر الله. هنا تكمن العظمة، روعة العبادة أن تفرح بفسحة الراحة بعد طولِ مكابدةِ طينِ تقلّباتِ الحياة.

- لقد وقع ظلمٌ شديدٌ عليه وعلى أهله، ألم يكن ليختار طريقًا آخر أسهل وأسرع ليَحُلّ المشكلة مع امرأة العزيز ويساهم في إنقاذ قومه من الجوع والحرمان؟

- أسهل وأسرع؟! (قالت مستنكرةً)، وهل تظن أنّ الله عاجزٌ عن حلّ المشكلة بنفسه؟ لو اختصرنا عمر تفاحةٍ تحت الجحيم لما صارتْ ياقوتًا[١٣] يا خالتي. طول الطريق ليس الهدف منه إلا نفض الشوائب عن نفوسنا حتى نصل إلى الله مكتملين، هل رأيت أقمارنا تختصر طريقها مرةً؟

- لكنّ هذا مؤلمٌ وصعبٌ وشاقٌّ.

- لا يكتمل حبّك لله حتى توافقه فيما تحب وتكره، وحتى تكون

---

(١٣) قد تظن الكلام خطأ فادحًا، تريث وتذكر أننا في كون آخر تختلف قوانينه، الفحم يصير ألماسًا بفعل الجحيم على أرضنا فقط! وهو ثمين جدًا على أرضنا فقط.

إرادتك هي عين إرادته فيك.

- لعل الله يختبرنا ليرى كيف نفعل.

- حين خلق الله الطائر لم يكن يتوقع منه الزحف! حينما يضعنا الله في تجربةٍ فهو لا يتوقع منا الضجيج.

- إذا قاومت ظروفي، فأنا أضج وأعترض على قدر الله؟ !

- نحن نقدم الإيمان لله، حين نصدّق بالله. بعضُ الإيمان يقتضي أنْ تجعل الله صوتَك حين لا تستطيع الكلام، وتجعلَه عينيْك حين لا تستطيع الرؤية. بعض الإيمان يقتضي أنْ تثق بالله، فلا تسمح لنفسك بالشكّ لحظةً، ولا بمقاومةِ صنعِ اللهِ فيك مرةً.

- سؤالٌ أخيرٌ.

- تفضل.

- هل تُعدُّ مقاومة الخطأ، والرذيلة اعتراضًا على ما كتبه الله؟

- لا يمكن للناس إعادة كتابة حياتهم، كلُّ ما نمرّ به كتب في لوحٍ محفوظٍ لا يتغير، وصبرنا وقوة إيماننا هي ممرات الجنّة الضيّقةً التي توصلنا إلى الباب الكبير.

سكتتْ قليلاً ثم أضافت:

- لن تقع في الخطأ ما لم تبحث عنه.

- ولن أعرف الصواب ما لم أبحث عنه.

- الصواب هو طريق الله، لا يحتاج لبحثٍ ما دمت تغسل قلبك كل يوم بوضوء الذكر والتسبيح والقرآن.

- ومن وُلِدَ غير مسلمٍ كيف يفعل؟ ألا يجب عليه البحث عن طريق الله؟

- لا. عليه فقط الإنصات جيدًا إلى صوته الداخلي، وعليه النظر بنور قلبه لا بعينيْ غيره ليصل.

****

الأرض (٣):

في عالمٍ موازٍ ثالثٍ، كانت الخالة تجلس مع ابن أختها يوسف في غرفة نومها، كانت تسند نصفها العلويّ إلى ظهر السرير المُكوّن من فقاعة هواء، جالسًا كان عند حافّته قريبًا منها، يحمل في يده كتابًا مدرسيًّا، يعرض لها قضيةً شرحها أستاذه واحتاج لمزيد فهمٍ قبل أن يُلَخّصها، كما طلب منه.

- كيف حالك اليوم؟

- كما كل يوم؛ شتائي طويلٌ.

- لكنّ النور رائعٌ في الخارج بفعل تفاعلات الصيف، تموّجات الأفق جميلة بألوانٍ مذهلةٍ. دعينا نجلس في مكانٍ آخر، هل يمكنني فتح النافذة؟

- لماذا تفتحها؟ ليس مسموحًا للهواء العبث بمزاجي، ولا أحبّ النور فهو يتلاعب بالحقائق، يجعل الألوان أزهى مما هي عليه. يكفينا أنّنا نرى، لا حاجة بنا لمزيد ضوءٍ. ماذا تريد؟ لماذا جئتني؟
- أمورٌ لا أفهمها في قصة النبي يوسف.
- عندي كتابٌ أعطيه لك، لكنْ حافِظْ عليه.
- لا أريد كتابًا، قرأت القصة، وشرحها الأستاذ ولا زلت محتارًا في أمورٍ معيّنةٍ.
- قل ما شئت، سأجيبك، لكن حدّد أسئلتك ولا تقاطعني عند حديثي.
ضحك، وأردف:
- خالتي أنا يوسف! أعرفك جيدًا، ولن أقاطعك، أعرف نتائج ذلك جيدًا.
- سلْ ما شئت.
- كيف تُوِّج يوسف نبيًّا بعد كل ما فعله وكان من أمره؟
- كلّ أسئلتك في جرعة كأسٍ واحـدةٍ، فأنا لا أحب استفراغ إجاباتي على جرعات.
- حسنًا، لماذا تُوِّج يوسف نبيًّا بعد كل شيءٍ بدا منه؟ أليس الأنبياء معصومون؟ كيف عاد وتزوج امرأة العزيز وقد قتلتْ زوجها لتجعله وريثًا له في قلبها وبيتها وبلدها؟ ثم كيف خضع لنزواتها؟

ولماذا هرب إلى الصحراء بعدما فعل فعلته ورفض أن ينال عقابه من قِبَلِ الناس؟ ما الذي جعله يتوب؟ ما هي رسالته ما دام قد تُوِّج نبيًّا آخر عمره؟

أخذتْ نفسًا عميقًا، حاولت حبسه طويلاً لكنّ الهموم في صدرها طردته سريعًا، فعادةً لا يختلط الهواء بالهموم إلا ويهرب أحدهما بعيدًا. كانت تحتفظ بهمومها كأنّها مصدر رزق لها، تعتاش عليها وتقتات بها، تضخّمها لتصنع منها أفكارًا ولتشكّل بها منهج حياة. لم يكن سهلاً عليها الاكتفاء بالهواء في صدرها، دون الهموم؛ فالهواء يتجدّد دائمًا، وهي لا تحب التجديد، وتخاف من تبديل قديمها بمتجدّدٍ لا تعرف عنه شيئًا. الهواء قد يحمل رائحة البحر أو روائح الآخرين، أو روائح أماكنَ مجهولةٍ، الهواء يسافر كثيرًا ولا يستقر على حال، كانت ترى أنها إن تعرضت لكمياتٍ كبيرةٍ منه فإن أفكارها الثابتة قد تذوب وتتغير. الهواء لا جنسية له، وهي لا تحب الاختلاط بالغرباء.

– لنبدأ بالقواعد الأوليّة التي يؤسس الله عليها الحياة، عليها لنفهم الله أكثر، ونعي أسبابه وقراراته أكثر، حتى نعرف أكثر ونقطف العِبرة ناضجةً.

التجارب التي يُوقِع الله فيها عباده هي تجاربُ قاسيةٌ ومؤلمةٌ،

حين تتحرك في الطريق تثير الغبار، السكون هو فقط من يبقيك نظيفًا، الفضول قد يكون ثمنه غاليًا، والانسحاب والصمت ثمنهما خسارة المعرفة، لكنّك تكسب الحفاظ على مكانك، لن تخسر نقاطًا إضافيةً بأيّ حالٍ لو قررت الانسحاب في اللحظة المناسبة.

شيءٌ آخر يقرره الله وأفهمه من خلال تجربتي ومراقبتي للحياة: ليس من أخطأ فتاب كمن لم يخطئ، الخطأ يجعلك تخسر في طريقك إلى الله، تخسر كثيرًا من رسائلَ مشفرةٍ تصلك كل يوم، في دمعة طفلٍ، أو سعي نملةٍ، أو خاطرةٍ تباغتك، أو ألمٍ يجتاحك. الخطأ يدفعك كالموج عن شاطئ الإيمان.

ستسألني عن حب الله للتوابين! سأقول لك:

الله يحبّ التّوبة، لكن تخيّل أنّك لم تخطئ، هل سيحبك الله أقلّ؟ لا أظنّ ذلك. الأمّ حين تمدح ابنها تقول: لم يخطئ يومًا في حقّي، ولا رفع صوته في وجهي، ولا نسيني رغم مشاغله. التوبة يحبها الله لأنّها مخرجٌ من الباب الخلفيّ من بيت الخطيئة، مخرجٌ يعيدك إلى الطريق، أيّهما أفضل؟ أن تظل مخطئًا أم أن تتوب؟ لا شكّ أن التوبة خيرٌ. لكن، أيّهما أفضل: أن تخطئ فتتوب أم ألّا تخطئ ولا تُغضِب الله مرةً؟ لا شكَّ أنّ عدم الخطأ أسلم.

لنعد إلى قصة النبي يوسف.

يوسف، يوسف! رفعت صوتها.
هل أنت منتبهٌ لما أقول أم اعترتك غفلةٌ؟
- أنا منتبهٌ، لكنني سرحت قليلاً، كأنّ هذا الكلام سمعته من قبل ولا أعرف أين.
- لا بأس، لعلك سمعته في حلمٍ ما، أو لعل أحدًا ما قاله لك صغيرًا فتذكرته.
- لعلني سمعته في بطن أمي. (ثم ضحك.)
لم تشاركه الضحك، كانت ترى الضحك مغارةً تبتلع مزيدًا من الهواء فضلاً عن ابتلاع مزيدٍ من الثبات، الهواء عدوٌّ خطيرٌ يسرق منّا حتى أعمارنا، فَمَعْ كلِّ نَفَسٍ تُخرِجه تَخْرُجُ لحظةٌ من عمرك تمرّ وأنت لا تشعر بذلك.
- حسنًا، لنعُدْ إلى قصة النبي يوسف. ولا تسرح ثانيةً!
- حاضر. (قالها وهو يبتسم.)
- النبي يوسف، يعلمنا أنّ الخطأ واردٌ، حتى في حق الأنبياء. وأنّ النبوة أحيانًا لا تعني رسالةً مكتوبةً، بقدر ما تحمل رسالةَ حياةٍ عمليةٍ. قصة حياة النبي يوسف بذاتها رسالةٌ لكل إنسانٍ أخطأ ثم رغب في التوبة فخاف من الصدّ.
قصة النبي يوسف تعلّمنا أنّ الإنسان حين يخطئ، لا يؤثّر فقط

على مستقبله، بل على مستقبل غيره. لولا أنّه استُبيح وقَبِلَ بذلك، لما تجرّأت امرأة العزيز وتمادت واحتاجت عصورًا حتى تتوب. إنّ توبة الأنبياء أسرع وإن طالت. لكنّ توبة امرأة العزيز لم تكن إلا بعد أن تاب ودعاها للتوبة.

أمّا لماذا هرب إلى الصحراء، فهذا لأنّه لم يكنْ خليقًا به ألّا يفعل. (صمتت قليلاً كأنّها تفكّر، وتراجع ما قالته. بقي يوسف صامتًا يحدّق فيها، وهو يعلم كم هو سيّءُ العواقب أنْ يقاطعها في تلك اللحظات. كانت مقاطعته كفيلةً بأن تظلّ صامتةً للأبد عن الحديث معه في الأمر. كأنّها تعتبر مقاطعة صمتها وفكرها، أقرب إلى استنزاف وتحريك طاقتها الساكنة.)

تنبهّت، فغيّر جلسته تفاعلاً معها؛ ثنى ساقه تحت فخذه، وأنصت لما ستقوله:

- لقد هرب إلى الصحراء لأنّه احتاج إلى الصفاء، احتاج إلى أنْ يجد ذاته بعيدًا عن ذوات الآخرين. كلما زاد احتكاك الإنسان بالآخرين فقد جزءًا من عنصره الذاتيّ في عناصرهم. لا نبيَّ حقيقيًّا بلا غربةٍ، لا نبيَّ بلا عزلةٍ، لا نبيَّ بلا فرط اكتشاف الذات، فكلّ نبيٍّ رسولُ نفسه قبل أن يكون رسول غيره، كلماته الذهنيّة يجب أنْ تكون صافيةً ومرتبةً داخله قبل أن تتحول إلى كلماتٍ منطوقةٍ.

هذا حال الأنبياء دومًا، لذا احتاج النبيّ يوسف إلى الذهاب للصحراء بعيدًا عن ضجيج الأفكار وتجاذبات النفوس ليجد نفسه وينقذها قبل أن يبحث عن غيره لينقذه. كان بحاجةٍ لأنْ يَجِدَ الإيمان في نفسه قبل أن يُوجِده في الآخرين.

كان بحاجةٍ لأنْ يسمع كلمات الله بكلّ جزءٍ من حواسّه ومكوّناته قبل أن ينشرها في كلِّ مكانٍ يصل إليه، وكلِّ أُذُنٍ يقابلها.

كلمات الله غاليةٌ، لذا كان عقاب النبيّ يوسف أن يعصر من نفسه كلّ ما أثقلها من هوًى زَادَ عن حاجة الأنبياء، وأن ينفي عن نفسه كلَّ عطرٍ مغشوشٍ ليَقْبَلَ عطر الله في روحه فالأرواح تنعشها رائحة النظافة أكثر من كلّ عطور الأرض.

يا خالتي، التوبة متاحةٌ للجميع ما آمنوا بوجود توبةٍ، ويوسف لم يكن ملحدًا بالله ولا منكرًا له، يكفيك أن تؤمن بحقيقةٍ ما لتملكها وتحظى بخيرها.

أمّا امرأة العزيز، فقد كانت ذكيةً كفايةً ومتوحّدةً مع يوسف ومنجذبةً له كفايةً لتقرأ رغباته المحتملة، حتى لو أنكرها هو. ولمّا عاد، كانت مرآةَ فكرِه كفايةً لتنعكس توبته في قلبها وروحها.

لقد كانت انعكاسه، في ذنبه وتوبته، لذا تزوجها.

****

الأرض (١):

- خالتو، إلى أين أنتِ ذاهبةٌ؟

نظرت إليه باسمةً، وهي تلقي نظرةً أخيرةً في مرآتها:

- لزيارة صديقةٍ، أتريد أن أحضر لك شيئًا من السوق؟

- نعم، أنا سمعت من أمي أنّك ستمرّين بالمكتبة.

- صحيح، سأشتري كتابًا لصديقتي قبل زيارتها.

- أريد نسخةً من كتاب «الرحيق المختوم.»

برقت عيناها: «لماذا تريد هذا الكتاب بالذات؟»

- سمعت أنه أفضل كتابٍ في سيرة النبيّ محمدٍ.

- هل ستعتمد في سيرة نبيٍّ على كتابٍ واحدٍ فقط؟!

- ماذا في ذلك إن كان جيدًا؟

- هل يمكن فهم شخصية النبيّ محمّدٍ من خلال كتابٍ واحدٍ فقط؟

- إن كان الكتاب يتحدث عن تاريخ حياته بشكلٍ دقيقٍ! أحتاج لدراسة سيرة حياته، وهذا الكتاب -حسبما سمعت- يذكر الكثير وبتسلسلٍ منطقيٍّ ومنهجٍ تاريخيٍّ علميٍّ.

يبدو أنني أحتاج للكثيرٍ لأوضّح لكَ مقصدي، ويبدو أنّ لدي الكثير لأقوله لك. مستعجلةٌ الآن، وصديقتي على شرفات الانتظار. أشتري لك الكتاب وحين أعود نتحدث. سأمنحك

سؤالاً تفكر فيه لحين عودتي: « لو كان الرسول محمدٌ بيننا الآن، في القرن الحادي والعشرين، هل سيتصرف بالطريقة نفسها تمامًا كما تصرف قديمًا؟»

تركته سريعًا وخرجت، نظر في المرآة، كرر السؤال، ضحك من ملامحه، ثم استدار للوراء، عاد يكرر السؤال، وقد شعر أنّ ضبابًا كثيفًا يمحو وضوح الأفكار في عقله.

اشترت الخالة الكتاب وذهبت لرؤية صديقتها، استقبلتها بوداعةِ مَن اعتادت الحزن على مائدة قلبها، كما نعتاد الخبز.

«أحضرت لك الكتاب الذي تحتاجينه لدراستك الجامعية.» قالت مبتسمةً وهي تجالسها في غرفةٍ صغيرةٍ، أرضيّةٍ. كانت رائحة الرطوبة تَفْرِضُ نفسها وتهيّئ الضيوف لزيارةٍ قصيرةٍ، يفِرّون بسببها إلى دفء الشمس سريعًا. كان هذا تحالفٌ سريٌّ بين تلك العائلة الفقيرة والرطوبة، فزيارةٌ طويلةٌ، تفضح رفوف الطعام العارية، وتُسمع أنين أمعاء الأواني الخاوية.

تناولت الفتاة الكتاب بخجلٍ ورديّ الوجنات، تصفحته وفي عينيها بريقٌ، يَحارُ المرء فيه، أهو بريق الخجل أم بريق السعادة أم بريق المفاجأة.

قالت، وهي تعانق الكتاب في تعويضٍ شديدِ الرمزيّة عن معانقة ضيفتها:

– هذا كثيرٌ، ألا يكفي ما تنفقينه في تعليمي؟! الأقساط الجامعية مرهقةٌ لك، وأنت لست مجبرةً لتفعلي. كيف أشكرك؟

قالت مبتسمةً، وهي تهزّ رأسها نافيةً كلّ ما قيل:

– لقد فعلتِ، حين حصلتِ على منحةٍ. كان هذا أفضل شكرٍ تقدمينه لنفسك ولي، خففت عني عبء المصاريف، وتفوقت على كلّ ظروفك.

– لولاك لما استطعت.

– معدّلك العالي في الثانويّة العامة هو الذي أهّلك لكلّ ما أنتِ فيه.

– أنت أروع معلمةٍ عرفتُها.

– اتفقنا أننا صديقتان، وأن تنسَيْ أنّي كنت معلمتك يومًا، أليس كذلك؟

أومأت بنظرة قبولٍ من بين حجب الأهداب المنكسرة خجلاً.

– ليت أبي بيننا! ليته لم يهرب ويتركنا! لماذا تخلّى عنا؟ ما ذنبنا أنْ كنّا جميعًا فتياتٍ ولا ولدَ ذكرًا بيننا؟ هل كان الولد سيشرّفه أكثر منّا؟ كلُّ أخواتي الصغيرات مجتهداتٌ في المدارس، وكلتا أختيّ تعملان بجدٍّ للإنفاق علينا، ماذا لو رضي بقسمة الله؟! (ارتجف صوتها بقوةٍ حتى أثّر على شفتيها فارتجّتا بقوةٍ، ثم سكتتْ.)

– لا عليكِ. (قالتْ بحزمٍ) هو من قرّر أنْ يفتح ذلك الباب ويوصد الأبواب الأخرى. هو من اختار بنفسه، وما أدراك؟ لعله ندم

لرحيله. هل تظنين الله غافلاً عما فعله؟ أو أنّ الله سيغُضّ الطرف عن تفضيله الذكر على الأنثى؟ أنتنّ خمس فتياتٍ رائعاتٍ. لو رآكن الآن، سيعرف كم أخطأ حين هرب وكم خسر حين تخلى عن قضيتكن.

- لقد وجدت عملاً.

- رائعٌ! ما طبيعة العمل؟

قالت وقد شعرت بارتياحٍ لردة فعل ضيفتها، فهي تهتم جدًا لرأيها وتثق به ثقة الزفير في الأوتار الصوتية ليصيره صوتًا ذا قيمةٍ.

- في مكتبةٍ، بجانب الجامعة. أبيع الكتب في وقت فراغي، وأستفيد بتجهيز أبحاثي والقراءة في وقت خُلُوّ المكتبة من الرواد.

- كم هو خبرٌ جميلٌ! أنت فتاةٌ تستحقين التقدير. أعدك أنك ستصيرين يومًا كما تحلمين. أنت مصدر فخرٍ لي ولكلّ من انتسب إليك بقربى أو معرفةٍ.

وقفت الضيفة تستأذن للرحيل، بحجّة موعدٍ طبيٍّ مستعجلٍ. كانت تهرب من أيّ حرجٍ في الضيافة تسببه للمضيفة الفقيرة.

****

الأرض (٢):

كانت تشعر بكآبةٍ، حاولت ملاحَقة شعورها لاهثةً، لكنّها تعثّرت

في الوصول إلى مصنع توليد تلك الكآبة في صدرها. كانت الأفكار تتخبط في رأسها، وأشخاصٌ كثرٌ يزورون بالها بلا موعدٍ ولا استئذانٍ.

ابنُ أختها الذي سألها عن أفضل كتابٍ للسيرة النبوية، فحثّته على شراء (سيرة ابن هشام)، كانت تشعر بعدم ارتياحٍ تحت جلدها لذلك القرار، ولا تدري له سببًا.

تذكرت أولئك الفتيات الجارات البعيدات، تأنيبُ الضمير لاحَقَها حينما علّقت في رقبتها خيبةً ثقيلةً وخذلانًا سبّب لها حساسيةً، إذ نصحتها بأن ترضى بحالها، وتبتعد عن الشكوى والبحث عن عملٍ آخر يغيّر وضع عائلتها الفقيرة. كانت في تَنَازُعٍ بين أن تمنحها دفعةً للبحث عن عملٍ تحتاجه، وقناعتها الشخصيّة بأنّ العمل في في ذلك المجال يداخله بعض الحرام، هي تعلم أنّ العمل للبنت واجبٌ في حالِ غياب الأمّ، فالأب لا يمكنه العمل في أماكن مختلطةٍ، وصعبٌ العثور على عملٍ يناسبه[١٤].

أرسلت تطلب حضور ابن أختها يوسف، لعلها تحادثه لتفهم نفسها وتضع يدها على موضع الخلل في ذلك كلّه.

حضر متأخرًا متكاسلاً، كان خاليَ الوفاض، لا يجد ما يقوله ولا

(١٤) لا تنسَ عزيزي القارئ، أن بعض الأكوان، فازت فيها الأنثى بمثل حظ الذكريْن!

يبحث عن شيءٍ يسمعه.

- أخبرني ماذا تريد أن تعرف عن النبيّ محمدٍ؟ هل وجدت في سيرة ابن هشام ما تريده؟

- تقريبًا، قرأت قليلاً ووجدت الكثير، لكن الأسئلة لا زالت هي هي، لا تتغير. سيرة حياته متوقعة، حارب وقاتل وأوذي وصبر وتزوج نساءً كثيراتٍ، وتحالف وتصالح، وعلّم الناس دينهم. هذا متوقّعٌ وطبيعيٌّ كسيرةٍ نبويةٍ. لكنْ...

- لكنْ ماذا؟ عمّ تبحث بالذات في سيرته؟

- عن كلّ شيءٍ، عن مشاعره، وغضبه، وتفاصيل حياته الشخصية.

- كلّ هذا في سيرة ابن هشام تجده. أظنك لم تقرأ بعمقٍ كفايةً.

- قرأت! ولكنْ، في حادثة آبار بدر، لماذا اقترحت عليه صحابيّةٌ تغيير مكان الجيش وقَبِل؟ ما هي قراراته التي كانت بوحي، وقراراته التي كانت اجتهادًا منه؟ هذه عرفناها، ولكن لا بدّ أنّ هناك غيرها لا نعرف أهو وحيٌ أم اجتهادٌ شخصيٌّ.

- ماذا يهمك؟ هل سيفرق الموقف؟ هل سيختلف الدين إن عرفت؟ إنه نبيٌّ يوحى إليه، واجتهاده الشخصي لو كان خطأً فإن الله سيصوب خطأه، فلماذا تتعب نفسك كثيرًا؟

- ممكن سؤال؟ ولا تضحكي؟

- قل! (أجابته بدهشة.)
- لو كان النبيّ بيننا ماذا كان سيلبس؟
تجمّدت لشدة ما فاجأها السؤال وارتفعت حرارتها في حمّى البحث عن جوابٍ كأنّها مكعب ثلجٍ كبيرٍ بدأ يذوب لحرارة التفكير.
قالت وقد انتفضت كأنّها تنثر آخر بقايا الأفكار السائلة من دماغها:
- لعله سيلبس ما كان يلبسه ليتميز عنا، ويعرفه الناس.
- وهل كان يلبس ملابس تميزه قديمًا عن أبي لهب؟
- انتظر! هو لن يلبس ملابسَ لافتةً للانتباه، لن يلبس الزجاج الشفّاف مثلاً! قد يلبس كملابس أهل الحجاز، أو كملابس...
ثم صمتت.
ضحك يوسف، ثم قال:
- الله أعلم!
ثم استأذنها وانصرف.
شعرت بانزعاجٍ أكبر من ذي قبل، وبحيرةٍ تَدْهَمُها وتبلّل جفاف سكونها كبحيرةٍ أُلقيَ فيها حجرٌ فزاد ارتباك سكونها بدوائر التوسعة والتمدد المفاجئيْن.
كم تمنّت أنْ تقدم النصيحة لجارتها الفقيرة، لكن الجارة تقريبًا أخذت قرارها ووجدت طيف قوس أمل في البحث عن عملٍ، تساعد

به والدها المنهك، كانت تحتاج للعمل لتقنع أباها أنّ العمل خيرٌ من زواجٍ مبكّرٍ لإخوتها الذكور، لكن أيّة نصيحةٍ تقدّمها لها؟ كانت الفتاة واثقةً مما تريد، فخافت أن تكسر أجنحة الفتاة الوليدة، وخافت أن تخون قناعتها بالنصيحة بقبول زواجٍ مبكرٍ، فآثرت الصمت.

****

الأرض (٣):

فضّت المغلف بنفخةٍ فظهرت رسالةٌ ثلجيّةٌ منقوشٌ عليها بقلم رقيق الخط. كانت رسالةً طويلةً، قلّبتها بين يديها بدهشة؛ «ما كلُّ هذا الكلام!» قالت لنفسها. قرأتها قراءةً استكشافيةً سريعةً، بحثت في آخرها عن المرسل: شخصيةٌ شهيرةٌ ترسل لها بناءً على وصيّة صديقتها العاقر. بدأت بقراءة الرسالة بتمعنٍ وقد قطّبت حاجبيها:

« أيّتها الفاضلة،

علمت أنك خيرُ من يكتم أمري ويجيد نصحي. نصحتني صديقتك التي لا تنجب الأولاد بذلك، قالت إنك خيرُ مَن دعمها في تجاوز محنتها. وأنك تمنحينها الأمل.

سأخبرك قصتي، التي لا تعدو عن كونها كَوْمَ معاناةٍ، أو كتلة همومٍ متحركةٍ، يتغير شكلها ولا تفنى بذورها، فهي موجودةٌ في كلّ الفصول، تجفّ أحيانًا وتتفجر ينابيعها الملوثة أحيانَ أخرى،

لكنّها لا تزول ولم تَعُدْ لي طاقة الاحتمال والصبر.
قبل يومين تلمّست ضميري، افتقدته، كان دومًا يصرخ فيّ حينما أتوغل أو أتغول في أذى روحي وجسدي، لكنني آخر مرةٍ ارتكبت فيها ذنبًا، لم أسمع له صوتًا، خِفْت، فزِعت. هل مات ضميري؟! هل يئس مني فرحل؟ هل أصبح من حزب الصامتين؟ هل تقاعد؟ كان يؤلمني صراخه وضجيجه في جدران روحي. لكنني الآن خواءٌ، أشعر بغربةٍ عن نفسي وبوحشةٍ في ذاتي.
لقد أطلت! سأخبرك قصتي لتفهميني أكثر.
أبي هجرنا، وأنا ثالث خمس فتياتٍ، أمي مريضة –ولو لم تكن كذلك– حتى لو كانت صحيحة الجسد، فماذا بقي لتلك الروح المقاومة من شيءٍ تقاومه؟ ماذا يبقى للجسد من شيءٍ يفعله إن كانت الروح قد ذبلت وقررت التوقف عن المقاومة؟ ابيضّت روح أمي حتى صارت رايةً بيضاء تتناوشها الظنون والأوهام، باتت روحها كفنًا أبيض ينتظر أن يلفّه الموت بسواده.
وليس لنا معيلٌ ولا سندٌ. هَجَرَنَا أبي وذنبنا أننا فتياتٌ، أننا إناثٌ!»
هزّت رأسها بأسًى وهي تقرأ، طوت الرسالة وتنهدت قليلاً، ثم أعادها الفضول لتكمل:
« لماذا ينزعج الآباء من الإناث؟ وكل مصائب الأنثى وخيباتها

ومآسيها سببها ذكر؟ أليس أبي ذكرًا؟ أليس هو سبب خيبتنا الثقيلة؟ أمي أنثى لماذا لم تتخلّ عنا مثله؟ إنه يبحث عن شبيهه! يا للأنانية المفرطة! إنه يبحث عن وريثٍ يحمل اسمه! ألهذا خلق الإنسان؟ ليكرر خطأ آدم الأول في عشق الخلود؟ كانت خطيئة آدم عشقه اللامتناهي للخلود لدرجة أنّه قرر أن يأكل ثمرةً بسيطةً، وأخرجه طمعه من جنة السكينة إلى أرض الشقاء والكدّ. أبي وكل أبٍ يكرر خطأ آدم بلا أدنى تغييرٍ. ثم يضجّ الرجال من حماقة آدم فيما جرّه على ذريته!

لم يبق لي ولأخواتي ما نفعله، منبوذاتٌ من الجميع، لا ألوم المجتمع؛ فحين ينبذني مَنْ أنا مِنْه، هل سيتولّاني الأبعد؟ من بقي لي؟ خالقي؟ لقد ضجّتْ حياتي وتمردتْ روحي على الخالق، ورفضتُ طاعته حين رفع عني رحمته... لا، لا، يجب ألا أقول هذا! أنا فقط غاضبةٌ حانقةٌ، لا أريد حربًا مع الله. لقد توقفت عن ذلك منذ مات ضميري! تخيلي، فقط حين مات ضميري شعرت بحاجتي إليه، خفت، كان هو بقايا الإنسانية فيّ فلما صمتَ خفتُ وبدأت أنا أبحث عنه وعن خالقي. مفارقةٌ عجيبةٌ أليس كذلك؟

سأخبرك قصتي مباشرةً، وفي ثناياها ستعرفين أين أطلب النصيحة: عمري خمسةٌ وعشرون شتاءً ثلجيًّا، لا ربيع في عمري ولا حتى

خريف، كلّ أيامي صقيعٌ تمرّ عليه الأحلام والآمال فتتزحلق سريعًا لأنها لا تصمد أمام هذا البرود الأملس الذي لا يلبث فيه شيءٌ ولا ينبت فيه خيرٌ. لم تتعلم أيٌّ منا، حاولت أمي أن تعمل لأجلنا بائعةً للخيوط البريّة تقطفها من الشجر، وكانت أموال الزكاة تغطي جانبًا ضئيلاً آخر، كان ثمن الخيوط لشراء الخبز، وأموال الصدقات لشراء بعض الخضار نأكلها مع الخبز، ملابسنا كنّا نحصل عليها ممّا تأبى الأجساد وتأنف لبسه، أيُّما امرأةٍ استغنت عن ثوبٍ ممزقٍ كنا نقبله بسرورٍ مكسورٍ. لا أحذية، ظلت أقدامنا بِكْرًا من الأحذية، تعانق الأرض صيفَ شتاءَ، كانت هذه حياتنا، لا مجال للتعليم ولا لفرحة حبة شوكولاتة. أول مرة تذوقت فيها الشوكولاتة كانت حبةً محرمةً! سرقتها من محلّ حلوياتٍ. وثاني مرة كانت الحبة التي أخرجتني من جنة العذرية إلى أرض الشهوات.

مرضت أمي، أنهكتها الحياة واليأس، مرضت روحها قبل جسدها، وضِعْنا نحن، صبايا صغيراتٌ، أيّ عملٍ سيسمحون لنا به دون أن تنهشنا العيون وتطمع فينا القلوب المريضة؟ وهذا ما كان!

أختي الكبرى تزوجت مبكرًا من رجل قتلها حبًّا، قتلها فعلاً في فراش الزوجية لأنّ جسدها لم يحتمل تلك الجَلافة وهي بنت التاسعة. أختي الثانية خافت، فهربت من البيت وهي بنت سبع

سنواتٍ، حتى لا تلقى مصير أختها، هربت مِن كلّ شيءٍ، مِن وجوهنا ومِن ذكورنا، ومِن مرض أمي، أختي الثانية تحمل جينات أبي في سرعة الهرب!

لم يبق للعائلة سواي، حملٌ ثقيلٌ حملته وأنا بنت ستّ سنواتٍ. تخيلي! وأنا بنت ست سنواتٍ! لا أعرف من الدنيا شيئًا، لا أميز بين الحلال والحرام، أو حتى لا أدرك معنى الشرف ولا حتى معنى الأنوثة. أنا شيءٌ، مجرد شيءٍ في جسد أنثى.

حين كنت بنت ست سنواتٍ، أذكر أول مرة خرجت فيها للعمل، كانت أختي تبكي بشدةٍ لجوعها، وأمي تئنّ تحت وطأة العبء النفسيّ، كان أنينها صرخةً مكتومةً تحاول من خلاله أن تبعث الحياة في روحها، حاولت القيام من فراشها لكنّ روحها المُنَكَّهة بطعم الكآبة الحادّة لِما أصاب كِلتا أختيّ أقعدها.

خرجتُ أبحث عن الطعام، وجدت في حاويةٍ قليلاً منه فأحضرته، ثم تكرر الأمر، حتى اشتهيت طعامًا نظيفًا! سرقت! كانت أول مرةٍ في حياتي أسرق فيها، لم أذقه يومها، سرقته من طفلٍ ينتظر والده أمام محلٍ فخمٍ للألعاب، بكى الولد فهربت مسرعةً إلى البيت وأنا أقبض على شطيرته كأني عزرائيل يقبض روحًا، لا شيء يردعه، شعرتُ أنّ أخواتي أحقّ بالطعام. سرقته، وكان نظيفًا لكنّه تلوث

بفعلتي، لذا لم أذقه، لم يرَ التلوّث فيه أحد سواي. أحيانًا كنت أقبل الصدقات، وأحيانَ أخرى كنت أحمل أثقال الآخرين فوق أثقالي لأوصلها إلى بيوتهم مقابل مبالغَ زهيدةٍ، لم يكن أحدٌ يرى الحِمل فوق ظهري فكانوا يضعون حملاً إضافيًّا فوقه، لم يكن يخفف الثقل إلا خواء معدتي وأخواتي، كان الجوع يجعلني خفيفةً مُصرّةً على مزيد عملٍ.

استمرّ الحال ثلاث سنواتٍ، لكنني وجدت السرقة أسهل، وصرت أسرق بطريقةٍ أو بأخرى، حتى أمسكني أحدهم، وانقلبت حياتي. كنت ألبس جسد ابنة تسع سنواتٍ، وتتلبّسُني روح ابنة عشرين سنةً. حين أمسكني كنت جاهزةً تمامًا لما يريد، أخذني إلى بيته تحت وطأة التهديد بتسليمي للشرطة، فذهبت إلى بيته الخالي، لم يمسّ جسدي، لكني حفظت جسده غيبًا، كيف أوضح لك ذلك؟

كان يحضن الملابس النسائيّة الداخليّة، ويطلب مني أن أقضي متعته دون أن يمسّ جسدي، هل فهمتِ؟ كنت له يده التي يقضي بها وطره، كان يعطيني مبالغَ ضخمةً، واستغنيت عن السرقات الصغيرة، لأتحول إلى سارقةٍ كبيرةٍ على يديه، سرقت عمري وبراءتي وشرفي المزعوم، كما سرقنا سويةً بيوتًا كثيرةً.

وكبرتُ وفهمتُ أنّه يستغلني. لا، لا أقصد أنّه يستغل جسدي، لم

أدرك هذا بعدُ، علمت أنه يستغلني في نصيبي من السرقة، حصتي من الخطر والمغامرة. كان يرمي لي الفتات، فاختلفنا وقررت تركه، لكنه استطاع بخبثٍ أن يربطني إليه للأبد. أتعرفين ماذا فعل؟ آه، ليتك تعرفين. هل ستتحمّلين؟ هل لا زلت تقرئين؟ ماذا تتوقعين؟ لقد تزوج أمي!

ليس حبًا لها، لكنه عرف ظروفنا فأراد أن يسيطر علينا من خلال كونه زوج أمي والوصيّ علينا. كان يستغلنا أبشع استغلالٍ، بطرقٍ فنيّةٍ مبتكرةٍ لا تخطر على بال الشيطان.»

أوقفتْ القراءة لهول الصدمة، أسئلةٌ كثيرةٌ راودتها: كيف تقبل الأم بزواج كهذا؟ هو يستغلها، وهي؟

لا شكّ أنها قبلت لشدة يأسها، أو لشدة حاجتها لرجلٍ يُعِيلها وبناتها، أو لعلها قبلت لأنها مخدرة الإحساس.

لكن هو؟ ماذا كان يخطط؟

عادت للقراءة:

« كبرنا وصرنا ثلاث مصائبٍ في وجه المجتمع، وثلاث خطايا صنعها أبي.

لم يتوقف الأمر عند حدّ السرقة، فقد وجد بالصدفة صوتي جميلاً، فعرض صوتي للبيع في حانات السهر، كنت أجني مالاً وفيرًا، لكن...

أتعرفين شعورك حين تبيعين كلّ شيءٍ مقابل الخبز؟ لقد بعت جسدي وصوتي. حين كنت أُغنّي لم يكن الناس يتقبلون غنائي إلا إذا بِعْتُ إحساسي معه، حتى إحساسي جرّدوني منه. إن غنّيت بلا إحساسٍ ضجوا وضربني زوجُ أمي! هل قلت زوجُ أمي؟ كيف يكون زوجَ أمي؟ ولو لمْ أخبره بمصيبتي في بطني لكان والدَ ابني الذي أجهضتُه؟ لقد ضربني كثيرًا لأجهضه، ليس خوفًا من الفضيحة، لكن خوفًا على العمل والمال.

لكنني الآن مشهورةٌ. هل هذه هي ضريبة الشهرة؟ أم ضريبة الفن؟ أم ضريبة الفقر؟ أم ضريبة اليُتْم؟ أم هل هذا كله ضريبة أن أكون أنثى في مجتمعٍ ظالم؟ هل أنا الوجه المظلم للمجتمع؟ هل أنا المجتمعُ بلا أقنعةٍ؟ هل أنا ثمرةُ انحطاطِ هذا المجتمع القذر؟

بكلّ حالٍ: أصبحنا مشهوراتٍ في العالم الأحمر، والليالي الحمراء. صار لنا مالٌ وشهرةٌ، لكننا خسرنا أنفسنا مقابل ذلك. وأمي لا تزال مخدرة الإحساس، لعلها تشعر بما جرى معنا؟ لعلّ ما جرى معنا كان الضربة القاضية لها لتنفصل عن الواقع تمامًا!

حاولنا التخلص من زوج أمي لكن لا فكاك! من يمكنه الهرب من ماضيه وتاريخه؟ لقد تغلغل في ثنايا ماضينا واقتحم أحلامنا، ورسم خطّ مستقبلنا. دودةٌ تسكن أمعاء حياتنا لتأكل خيرنا وتتركنا

منهكاتٍ، كلما حاولنا الفكاك ضيّق الخناق.

هذه هي قصتي، وكما أخبرتك لم أشعر بالرغبة في التغيير إلا عندما مات ضميري تمامًا، ساعتها شعرت بالخوف وبالرغبة في أن أومن بالله. إنّ صَمْتَ ضميري يؤرقني، أحتاج لأن أشعر أنني إنسانةٌ طبيعيةٌ مرةً أخرى. أرشديني، أرجوك لا تحتقريني. سأنتظر ردّك مع صديقتك التي لا تنجب. فلا تهمليني.»

ن. ف

٢٠١٤/٦/٢٤

****

الأرض (١):

- أمي أنا ذاهبةٌ لزيارة جارتنا.

- هل أخبرت أباك؟

- لا! هي قريبةٌ من بيتنا وتعلمين ألّا أولاد لديها، وزوجها كبيرٌ في السنّ لا يعود مبكرًا إلى البيت.

- تعلمين أن أباك لا يحب خروجك دون إخباره.

- هذا قلقٌ غير مبرر! فهي معروفةٌ في الحيّ، وأنتم تعرفون وجهتي.

- سلي أباك! لن أتحمل المسؤولية إن غضب.

أمسكت هاتفها بغضبٍ واتصلت به:

- سأذهب لتفقد أحوال جارتنا العاقر، ولن أتأخر هناك.

ردّ أبوها باقتضابٍ:

- حسنًا، اذهبي وكوني حذرةً ولا تطيلي البقاء. خذي أختك معك.

- لا داعي، فمشواري...

- خذي أختك معك، وعودي قبل أذان العصر.

- حاضر.

أغلقت الهاتف بغضبٍ. صرخت تنادي أختها الصغيرة ذات الخمسة عشر ربيعًا، وتحثها على أن تجهز نفسها لترافقها.

تذمرت الأخت، فهي تشاهد التلفاز ولا حاجة لها بالذهاب، كانت حُجّتها أنّ البقاء هناك مملٌ، فلا شيء تفعله. لكنها وافقت حين وعدتها الأخت بتعويضها في مناسبةٍ أخرى.

طرقت الباب طرقًا خفيفًا، جاءت المرأةُ شتويّةُ الثلاثينات تمشي ببطءٍ، تجرّ ساقيها. استقبلتها بودٍّ كبيرٍ، دخلت الأختان وجلستا في تلك الشرفة العتيقة المزجّجة طلبًا لدفء الشمس الربيعيّة وللاستمتاع بمشاهدة النباتات البيتيّة.

وضعت الأخت كيس الفواكه الذي اشترته على الطاولة بصمتٍ خلال ذهاب الجارة لتجهيز الشاي.

كان بيتًا بسيطًا، ذا درجٍ قديمٍ طويلٍ في زقاقٍ ككلّ البيوت العتيقة

في الحارات القديمة.

كان بيتًا كبيرًا بالنسبة لرجلٍ وزوجته، غرفة صالونٍ لاستقبال الضيوف، لكنه في الحقيقةً لم يستقبل ضيفًا يومًا، المواعين والأواني الزجاجية وأدوات الخياطة غيّرت هويته تمامًا.

مطبخها صغير جدًا لا يتسع إلا لاثنين، ولا يتسع إلا لأدواتٍ تكفي اثنين. كان أشبه بمطابخ الأقزام السبعة، كلّ شيءٍ فيه يكفي لاثنين فقط، فإذا وافاها ضيفٌ، وهذه حالةٌ نادرةٌ، تخرج من الأواني المصفوفة في غرفة الصالون، ممّا بقي من أطقمٍ زجاجيةٍ عتيقةٍ احتفظت بها من أيام زفافها الأولى.

غرفة نومها كبيرةٌ تتسع لسريرٍ مزدوجٍ لها ولزوجها، ولأحلامٍ نائمةٍ دومًا لا تستفيق، كانت تتخيل أسرّة أطفالها دومًا أمامها، بقيت تلك الأسرّة نائمةً في خيالها، حين تمشي في غرفة النوم تسير في طريقٍ محددةٍ حتى لا تصطدم بتلك الأسِرّة الوهميّة. كانت إذا فتح زوجها التلفاز تطالبه بإخفاض صوته، خوفًا من إزعاج الحلم النائم، أحيانًا كانت حين تضجّ ويضيق بها الألم فترفع صوت التلفاز جدًا لعل تلك الأحلام تستيقظ وتقوم من سباتها.

كان ممرٌ صغيرٌ يربط بين تلك الغرف، وحمامٌ خجولٌ في زاوية المطبخ، لا تَتَبَيّنُه كأنّ بابه سريٌّ كباب الحديقة السريّة، لكنّه لا

يؤدّي إلى حديقةٍ بل إلى سجنٍ مؤقتٍ يتسع لقدمين فقط.
أحضرت الشاي وهي تبتسم لمرأى الكيس على الطاولة، قالت بسعادةٍ:
- لماذا تكلّفت ذلك؟ يكفيني زيارتك. كيف أمك؟
- أمي بخيرٍ جدًا، تُسلّم عليك ومشتاقةٌ لأخبارك. طمّنيني، كيف أنت؟
- الحمد لله. (قالتها بتنهيدةٍ تنتحب لو كان للتنهدات دموعٌ.)
- الحمد لله دومًا. حلمت بك حلمًا جميلاً، فهل تستمعين؟
- بشّرك الله بكلّ خيرٍ، هاتي ما عندك.
- رأيت في المنام قبل الفجر، بعد أن صليت قيام الليل، أنك في بستانٍ أخضر، وأنك تنادين على ابنك. لم أرَ الولد، لكني رأيت رجلاً سَمْحَ الوجه يراك ولا ترينه يقول: «خذي، هذا ابنك، واصبري فهو مفتاحك للجنة.»
- أمعقولٌ أن ألد وأنا على مشارف الأربعين؟
- أمعقولٌ أن يردّ الله دعاءك العريض في لياليك؟ أمعقولٌ أن يخيّبك الله وما قطعت الأمل؟ ولا توقفت عن العمل؟ هل توقفت عن الدعاء؟
- لا، لم أتوقف عنه يومًا. ما رأيت طفلاً إلا ودعوت بولدٍ خالصٍ

لي. لعلّ الحليب جفّ في صدري، لكن الحنان لم يجف.
- ما دمتِ دعوتِ، فهل كنت تدعين وتظنين أنّ الله لا يستجيب؟ عجيبٌ أمر الإنسان! يدعو برجاء النوال فإذا جاءته البشرى تعجّب! لماذا ندعو ما دمنا لا نتوقع حصول المرجوّ؟
صمتت السيدة، خافت أن تسمع الضيفة قرقعة الأمل في قلبها، وضجيج الأحلام النائمات.
- فيم تفكرين؟ (قالت وهي تضع وجهها في وجه الجارة، وتبتسم.)
- لا شيء، الله يبشرك بالخير، لعله خيرٌ.
- إنْ تحقّق حلمي كما فسرتُه لك، فلا تنسيني من الحلوان.
- حلوانٌ لم يكن لأحدٍ قبلك. (ثم التفتت إلى الأخت الأصغر وسألتها):
- وأنت كيف حالك؟ وكيف دراستك؟
- بخيرٍ. (قالت بخجلٍ واضحٍ). كانت تقف أمام النافذة تتأمل البيوتً والأسطح المنخفضةً في محاولةٍ لخلق أجواءٍ ممتعةٍ تمضيها بعيدًا عن حديثٍ لا يمتُّ لاهتماماتها بصلةٍ. كانت تنظر إلى تولُّد الغيوم في السماء، تخيّلتها رجلاً عملاقًا ينفث سيجارًا كوبيًا ليملأ السماء بتلك الغيوم الرمادية.
- تعالي كُلِي تفاحًا مما اشترته أختك.

- شكرًا، لا أريد.

حثتها أختها على الجلوس، في مجاملةٍ لصاحبة البيت. فهمت الأخت مغزى الدعوة فجلستْ تأكل التفاح بخجلٍ واضحٍ، فقد حاولت جاهدةً ألا تصدر صوتًا وهي تقضم التفاحة. كانت تحاول أن تكون شفافةً غير مرئيةٍ أو مسموعةٍ في تلك الجلسة.

أنهت الأختان الزيارة، حاولت الجارة جاهدةً إبقاءهما للغداء، لكنّ الفتاة اعتذرت بقلق الوالدة عليها وإلحاحها لها بالعودة سريعًا لإنهاء أشغال البيت المتبقية.

في طريق العودة كانت منشغلةً جدًا بالتفكير في خوف أهلها غير المبرر عليها، لدرجةٍ لم تلحظ معها عيون الشاب التي تراقبها وساقيْه اللتين تتبعان خطوها.

****

الأرض (٢):

- أمي، هل تذهبين اليوم معي لزيارة جارتنا؟

- أيّة جارةٍ؟

- التي لا تنجب، منذ مدةٍ لم نزرها، وهي تعاني من وحشةٍ دائمةٍ بسبب الوحدة لولا العمل.

- لا بأس، نذهب ضحًى. ما زال الوقت مبكرًا.

سرحت الفتاة، ثم قالت لأمها:

- كأني رأيت هذا الموقف أو سمعت هذا الكلام من قبل! وأظنك ستقولين لي: «يجب أن نعود قبل الظهر!»

ضحكت الأم: «ما كنت أنوي قول هذا، لكننا لن نطيل المكث، يجب أن نعود لننجز أعمال الحقل، حتى يجهز والدك وأخوتك الطعام.»

ذهبتا محمّلتان بطبق حلوياتٍ بيتيٍّ صنعه أخوها، تحدثّتا في كلّ شيءٍ، وسلك الجميع باتفاقٍ ضمنيٍّ طرقًا التفافيةً للحديث بعيدًا عن أشواك الطفولة المؤلمة للجارة.

كانت الجارة مدججةً بالمشاعر، ملغمةً بفخاخ الكلام، أيّ كلمةٍ غير مقصودة حول الأطفال تثير حساسيتها، تفهمها على مستوًى واحدٍ فقط؛ المُعايرة.

رغم حبها الشديد للأطفال، إلا أنها لا تجرؤ على مداعبة طفلٍ. كانت يداها دومًا ترتجفان لرؤية الأطفال، لفرط ما هي باذخة الحنان السائل من عيونها في وجه طفلٍ أو على خده، إلا أنها تخاف بشدةٍ من أن تُتَّهم برغبةٍ تملُّك الطفل، أو حسده. كانت الأمهات يخبئن أطفالهن منها دومًا إمّا مراعاة لفائض الأمومة المهدورة عندها، أو خوفًا منها. لعلّ إحداهن تخاف من تَعَلُّق طفلها بالجارة أكثر

من تعلقه بأمه. غيرة الأمهات على قلوب أطفالهن أقسى وأشرس أنواع الغيرة. فحينما تغار المرأة على حبيبها أو زوجها تغار على أنوثتها، وحينما تغار من جميلةٍ غيرها تغار كذلك على أنوثتها، وتحصيل الأنوثة ممكنٌ بعدة طرق، فالصوت أنوثة، واللطف أنوثة، والأناقة أنوثة، والجسد أنوثة، والجمال أنوثة، حتى الغباء في عُرْفِ بعض الرجال أنوثة! لكنها حين تغار على قلب طفلها فإنها تغار على أمومتها، والأمومة أغلى، والتعاطف معها أعمق. كثيرًا ما يميل الناس للمرأة الحامل فوق ميْلهم للجميلة الأنيقة في الأماكن العامة وزحمة المواصلات، وكثيرًا ما يكون شعورًا نبيلاً لأنه إنسانيٌّ بحتٌ.

والأنثى تتخلى عن مظاهر الأنوثة بمجرد حصول الحمل، لذا تدافع بشراسةٍ عن هذا اللقب لأنها تنازلت عن الكثير للحصول عليه، ولا تسمح لأحدٍ بأن يشاركها إياه.

كما أن الطفل نصفٌ أمُّه ونصفٌ أبوه، وهذا حبٌّ لا يكون في غيره، فأنْ تحبه حبًا على حبٍ على حبٍ، حبِ الذات وحبِ الحبيب وحبِ الولد! فكيف ستسمح إذنْ، لأخرى بأنْ تشاركها في قلبه ولو بعناقٍ أو بقبلةٍ؟ كيف ستحتمل أن تُدلِّـله أخرى بمشاعر الأمومة فيركض نحوها هربًا من أمه؟

كانت الجارة تتفهم كل ذلك، بل إنها كانت تشعر به في حين لا تدرك كثيرُ أمهاتٍ ما تدركه وتعيه. من قال إنّ الأمومة تولد لحظة الميلاد؟! من قال إن الحامل حين تلد، تلد أمومتها مع طفلها؟ الأمومة لا تولد، الأمومة ليست بالحَمْل والميلاد. فكم من عقيمٍ أمٌّ، وكم من والدةٍ عقيمٌ!

سألتها الفتاة عن سفرها المرتقب، إلى بيت الله الحرام. فقالت:

- والله يا بُنيّتي، قدمتُ للحج لي ولعمّك وقبلونا بحمد لله، حصلنا على الموافقة. الله يطعمك ويطعم الحج لكلّ من تمناه.

- آمين. (قالت الفتاة بتنهيدةٍ حالمةٍ.)

- هل تريدين يا بنتي، شيئًا من هناك؟

- سلامتك يا حجة! (وابتسمت.)

كانت الجارة تحب مناداتها بـ «ابنتي»، كانت تتلذذ بنطقها لذةً خالصةً، لأنها تدرك بقلبها أنّ الفتاة تحب أن تناديها بهذا اللقب، وتتيح لها فرصة الاستمتاع بهذا النداء.

أحيانًا تكون السعادة مجردَ كلمةٍ تقال بلا مقابلٍ، يا لبخلنا حين نحرمهم منها، ونصفعهم بالرفض!

كان حديثًا طويلاً، والألسنة مُصابةٌ بتقرُّح الأخبار المُحتاجةِ لحَكّة نميمةٍ لتهدأ، لولا عِلْمُ الأمّ والجارة برفض الفتاة القطعيّ

لهذه الأحاديث لتناولا وجبةً دسمةً من لحوم الجارات. لكنهما لمّحتا ولم تُصرِّحا، وتحدّثتا بكل براءةٍ مصطنعةٍ. كانت حيلتهما الموروثة عن حواء، الحديث عن الأخريات بحجة الحرص على مصلحتهن والحزن لما جرى معهن. كانت متعة الحديث خفيةً في الصدر كمتعة الرَفَثِ في عتمة الليل.

ما إن علا أذان الظهر حتى قامتا على عجلٍ تستأذنان للانصراف.

في الطريق قالت الأم:

– الله يرزقها بولد، إنها سيدةٌ صالحةٌ وتعشق الأطفال. إنهم أنسُ كلِّ بيتٍ. بيتٌ يخلو من الأطفال، بيتٌ رطبٌ بمشاعر الوحشة والبلادة، بيتٌ ليس فيه أطفال لا تدخله شمس الحياة.

– إنها امرأةٌ صابرةٌ. إنها راضية بقضاء الله، وترفض حتى اللجوء للطب.

– ماذا سيفعل لها الطب؟ لم يحصل أن حملت امرأةٌ من العلاجات الطبية. هو قدر الله يؤتيه من يشاء.

لعلها بالدعاء حين تحجّ تنال، ولو أني لا أظنها تفعل.

– لم لا تدعو؟

– دعوت لها مرةً، فنهرتني قائلةً إنّ الدعاء اعتراضٌ على رغبة الله. هي لا تعترض، هي راضيةٌ وتعلم أن الله لو أراد لها أن تحمل

لوهبها طفلاً دون دعاءٍ.

- ما هذا الكلام؟

- أتفقُ معها، لو كنتُ مكانها لفعلتُ مثلها. (قالت بحزمٍ، دفع الأم للسكوت والاستغراب.)

قطع طريقهما شابٌ خارجٌ من أحد أبواب المحالّ التجارية الصغيرة، مخترقًا الشارع كسهمٍ موجّهٍ، اصطدم بالأم، فاحمرّ وجهه واعتذر، التقت عيناه بعينيْ الفتاة، وكأنّ السهم الموجه اصطدم بحائطٍ زجاجيٍّ شفافٍ أوقف مسيرته. بقي واقفًا، وانصرفت الاثنتان، دون أن تلحظا عيناه تتابعان الفتاة.

****

الأرض (٣):

في غرفتها المظلمة، أمسكت ورقةً منزوعةً من دفتر ملاحظاتها الجليديّ، وقلمًا حديديًا وبدأت تنقش ردًا على رسالة الفتاة التي شرحت لها قصتها مع ذلك الوغد اللئيم برتبة «زوج أم»:

« عزيزتي،

شكرا للثقة الممنوحة على طبقٍ من الاحترام والتقدير. لقد قرأت باهتمامٍ قصتك، ولم أفكر في إدانتك لحظةً. من أنا لأُدينَك والله أعلم بحالك وبأمرك مني؟ من أنا لأُدينك؟ وماذا أَبقيتُ ليوم

الحساب إنْ فعلتُ؟

هذه أول نصيحةٍ أقدّمها لكِ: «لا تدعي أحدًا يحول بينك وبين الله، أنت تقررين كيف تُنْهِينَ قضيتك مع الله، إنْ حربًا وإن سلمًا، ولا تلتفتي مطلقًا لأحكام الناس فهي دومًا جائرةٌ لأنها قاصرةٌ. لعلّ الله -عزّ وجلّ- لن يدخلك الجنة من باب الشرف المزعوم بل من بابٍ آخر لم تطرقيه بعد. لا أحثّك على الخضوع لحالك، لكنني أحثُّك على اكتشاف ذاتك أكثر ومعرفة قدراتك ومواطن قوتك وضعفك ومُعاجَلة مُعالَجة ذلك.

اعلمي أنّ لكلٍّ منا قدراتٌ وطاقةُ احتمالٍ، والله يَمْتَحِنُنا دومًا بحجم احتمالنا. ألا ترين أنّ فلانًا يُبتلى في صحته فيرى نفسه أشقى الناس ويظنه الناس بخيرٍ وأهون المبتلين؟

ألا ترين أنّ بعض الشامتين يَشْمَتون في فقر الآخرين، وهم في جنة الرضا لا يحفلون؟

الابتلاء أمر فرديٌّ جدًا لا يقاس بميزان الظروف الاجتماعية وإنّما بميزان النفس الحساس، ولكلٍّ منّا ميزانه الفرديُّ الذي لا يعرفه إلا هو - إن فهم ذاته - وربُّه الذي خلقه ويدركُ مجاهيل أسراره.

إذن أنت تقررين وحدك نهايتك أو بمعنًى أدقّ: تقررين بدايتك. ولا تحفلي إن سخر منك بعضهم إذْ تُبْتِ بعدما أخطأت، فليس

أشدّ على النفس من فطامٍ بعد رضاعٍ طويلٍ. دعيهم في غيّهم يعمهون، ويتقولون، ذلك ضريبة عودتك لله، ليتأكد من صحة توبتك اللهُ.

أمّا نصيحتي الثانية؛ فما دمت تبحثين عن ضميرك حاولي إذن أن تهبيه رشة حياةٍ. إنه صامتٌ لشدّة يأسه منك وقسوتك في نَهْرِه. اسمعي له مرةً وأعدك لن يسكت بعدها مطلقًا. لا تخافي، فالضميرُ أهونُ مفقودٍ وأعزُّ موجودٍ وأسرعُ مَن يعود.

أما عن زوج أمك، فتسلله إلى حياتكم من خلال أمكم، يُمكن بِكَرتٍ أحمر أن تخرجوه عن طريق أمكم نفسها. يخرج من الباب الذي دخل منه، إذ ليس هناك رفاهية الأبواب الكثيرة في حياتكم. سهلٌ جدًا في البداية أنْ تَقِفْنَ في وجهه، أو أن تقفي أنت في وجهه رافضةً مطالبَه، إنّ قول «لا» وحده انتصارٌ كبيرٌ إذا كان من المرأة للرجل. بعدها -يقيني- سينفجر وسيخطئ خطأً كبيرًا يدفع الشرطة للتدخل أو القضاء للفصل في أمركم. أخبري أمك بالأمر فأنت الآن كبيرة كفاية لتحدثيها وتفهم منك. يقيني أنّ طلاق أمّكِ منه سيُخلّصُكُنَّ للأبد منه. ولا تخافي بطشه، فالله خيرٌ حافظًا، وأنت الآن قويةٌ كفايةً لتكسري قيوده، فقط آمني بالله لأن الإيمان به يعني الإيمان بأن الشر يزول والخير لا يزول.

عزيزتي،
ما صدقت التوبة، صدقك الله النصرة. أمرك بيدك ولا حيلة لي إلا كلماتٍ ما لم تتذوقيها وتشعري بها فلا قيمة لها. لأن الصوت الداخلي هو الأساس ثم تأتي الأصوات الخارجية، واستعدادك لقبولها هو الذي يمنحها قيمتها.»
طوت الورقة وأدخلتها في فقاعة غازٍ، وقامت من فراشها ولبست متأهبةً للخروج، في مرةٍ قليلةٍ تفعلها، فهي عادة تخرج مرتين: خروج الصيف وخروج الشتاء. اصطحبت أختها وذهبت تسلم الرسالة للجارة لتوصلها لتلك الفتاة المجهولة.
استقبلتها الجارة ووجهها مكتنزٌ بالبشرى، مُرمّمٌ بالتفاؤل، ناطقٌ بالفرحة كأرضٍ جفّت ثم أغاثها القطر، أو كشعاع فجر يشي باقتراب النهار.
دهشت لمرآها وهي التي تعلم عنها شدة يأسها وحزنها على حالها ووحشة رحمها للأجنّة.
- خيرًا؟ ما سرّ هذا السرور؟
- لا أعرف، لكنني حلمت حلمًا هو الأجمل. (ثم ترقرقت عيناها بدموعٍ متورمةٍ بالأمل.)
- بشِّريني، فأنا قليلاً ما أفرح. دعيني أفرح معك ولك وبك.

- رأيت في منامي أن رجلاً صالحًا يعطيني ولدًا ويقول لي: «هذا ابنك.»

- أحقًا؟

- نعم، وأنا متفائلةٌ جدًا.

- لا أريد أن أخيب أملك، لكنّ الأبناء زينة الحياة الدنيا، وأحيانًا بلاءٌ من الله، فلا تستعجلي الفرحة.

وجمت السيدة، واختلط الفرح الصافي في قلبها حتى تلوث بوحل القلق.

قالت بصوتٍ خافتٍ: «الله يجيب الخير، أسأل الله خير الحلم وما فيه.»

لم تطل الفتاة المكث، لأنها اشتاقت صومعتها، وخافت مواجهة قلق السيدة وآمالها. تركت الرسالة على الطاولة، وانصرفت.

في طريقها، سألها شاب عن محلٍ لبيع الحرير المقوّى، فهو من خارج المنطقة، أجابته بهز كتفيها وبرفع شفتيها للأعلى، في إشارةٍ إلى عدم معرفتها. ثم تركته دون أن تصافح وجهه بعينيها ومضت.

وقف مذهولاً من سلوكها، أهو عجرفةٌ، أم لامبالاةٌ، أم خجلٌ شديدٌ. ظل حائرًا فهو لم يقابل من قبل فتاةً جميلةً زاهدةً بجمالها بهذا القدر.

****

الأرض (١):

بلغت بها الحيرة كلّ مبلغ.

عرفت من خلال قراءاتها وتأملاتها الكثير من أسرار الوجود وخفايا النفوس ودقائق وجوه الحقائق، حتى باتت لا تتعجب ولا تندهش، بل تتوقع بوعيٍّ كاملٍ ما يجري حولها، فتستريح كلّ التناقضات داخلها بسلام. شيءٌ واحدٌ لم تَجِدْ لحيرتها منه فكاكًا! شيءٌ واحدٌ خربش سلام روحها، فأصعبُ ما تواجهه هو ما تجهله؛ هذا الخوف غير المبرر من قبل أهلها عليها، الذي تجد صداه في نفسها، غريبٌ، محيرٌ ككهفٍ عميقٍ لا نهاية له، شلالُ خوفٍ يضرب صدرها ليصير بحيرةً ينعكس على وجهها، وجهُ مغتصبٍ وهميٍّ يريد سلبها شرفها. أكثر ما كانت تخافه وتفزع منه هو قصص الاغتصاب. كانت كابوسًا، تجيد تخيل نفسها مكان الضحية كأنها هي، تستحضر الحدث كأنها تعيش كلّ وخزة ألمٍ مرّت بها الضحية في ذاكرة جسدها البدائية، من اللحظة التي يضرب قلبها اضطراب الوحدة وملاحقة الأنفاس، إلى الصراخ والتقييد والإكراه والألم والوحشية والبكاء ثم الإنهاك والانتهاك ثم المواجهة مع النفس والمجتمع. كم هو مؤلمٌ! لعل خوف أهلها تضخّم في نفسها شبحًا من ذكرياتٍ لشيءٍ لم يكن قط؟

ما المخيف في الاغتصاب؟ انتهاك الجسد؟ السرقة؟ الإهانة؟ لا شيء من ذلك يفكّر فيه المجتمع، يشغله فقط الشرف! شرف الجسد في بضع قطراتٍ من دم. بضع قطراتٍ من دمٍ كافيةٌ لتحكم على الفتاة بالإعدام النفسيّ والوجوديّ للأبد. وصمةُ عارٍ أبديةٍ في أمرٍ لا ذنب لها فيه. والضحية دومًا أنثى، لا ضحايا شرفٍ ذكورٌ، فشرفهم لا يقاس في العيادات، ولا تظهر آثاره في الأرحام.

كان قلقها غير مبررٍ، يزيده جحوظ قلوب أهلها عليها خوفًا. لكن الآن، مع تلك الرسالة البصرية التي يرسلها ذلك الشاب الذي يراود عينيها لتلحظه حبًا، أثار الكثير من نفط القلق القابل للاشتعال مع أول شرارةٍ.

كانت تفكر في كلّ هذا وهي تستعد لزيارة صديقتها –طالبتها القديمة– المكافحة، قبل أن تعرّج حسب مخطّطها لزيارة السيدة العاقر للاطمئنان على حلمها.

خرجت يرافقها ثلاثة ظلالٍ؛ ظلّها وظلّ أختها وظلّ الشاب الذي يرصدها منذ مدةٍ، ولا يقترب.

استقبلتها الفتاة المكافحة بسرورٍ بالغٍ، كادت تعانقها لفرط السرور لولا الخجل. جلست الضيفة معَ الفتاة المكافحة في الغرفة الوحيدة الصالحة للجلوس، كانت عبارةً عن غرفة جلوسٍ نهارًا،

وغرفة نوم مساءً، يفصلها عن المطبخ ممرٌ ضّيقٌ كالحبل، معقودٌ في وسطه حمامٌ صغيرٌ.

وجلست الأخت الصغيرة التي انسجمت سريعًا مع الأخوات صاحبات البيت.

إذا حضر ضيوف -وهم قلةٌ- تكدست الأخوات في المطبخ أو نَفَرْن إلى ساحةٍ ضيقةٍ صغيرةٍ خلف البيت، فيها موقدٌ حطبيٌّ للخبز، وأريكةٌ ممزقةٌ، وبقايا أدواتٍ عالقةٍ في الزمن بين الحياة والموت، بين التحنيط والدفن. في آخر الساحة سورٌ مرتفعٌ يتصل طرفه العلويّ مع امتداد الأرض خلفه، التي تمّ شقُّها كشارع. حين تجلس الفتيات هناك، لا يحجبهن شيءٌ عن عيون وآذان المارّة الفضوليين، ولا يحجب عنهم شيءٌ من آثار غبار أقدام العابرين، لم يكن من ظلٍّ يحجبهن ويحجب عنهن، ومما زاد حرارة الموقف أنّ موقفًا للحافلات تمّ نصبه فوق الساحة مباشرةً فهو يطلّ عليها مباشرةً، مما جعل ظهور الركاب دومًا عيونًا أخرى تهبط مستريحةً على الساحة تتأمل سواد الفراغات بين الركام المتناثر فيها، مما ضيّق خيارات الفتيات في الهرب للساحة للبحث عن بعض الهواء أو الشمس هربًا من الرطوبة الداخلية، أو العزلة في حال زيارةٍ مفاجئةٍ قصيرةٍ، حتى قرر أحد أصحاب المحالّ التجاريّة المطلّة على ذلك الشارع

يومًا أن يمدّ مظلّةً قماشيّةً رقيقةً تحمي بضاعته من حرارة الشمس وتخفف عن الركاب حرارة الانتظار. حتى إذا أتى الشتاء، تمزّقت المظلة وهبطت فوق الساحة، فاعتبرْنها غنيمة حربٍ الطبيعةِ لهنّ، فقمْنَ بمدّها فوق الساحة لتحجب عنهنّ العيون. كانت تلك أول مرةٍ يتحالف فيها الشتاء مع الفقراء ضد الأغنياء.

كانت الفتاة تتحدث إلى ضيفتها بكلامٍ نصفه غير مفهوم، تبتلعه مع الشهيق، وتلفظ بقيته مع الزفير، تتحدث بسرعةٍ وتلوحٍ بيديها وتقوم قليلاً وتعود للجلوس مكانها، كأنها (إلكترون) يدور حول ذرّات السعادة.

كانت عيون الضيفة تلاحقها بين الدهشة والاستغراب والفرحة، كان فرحها عدوى الفرح في عيون الصبية، رغم أنّها لم تفهم نصف ما قيل. أشارت لها بيدها لتسكت قليلاً، انتبهت، فجلست متسائلةً، قالت لها إنّها لم تسمع نصف ما قيل، ولم تفهم البقية!

أخذت الفتاة نفسًا عميقًا وقالت:

- آسفة، هذا فقط لأنني شديدة الحماس.

- الحماس يا عزيزتي، ضارٌّ بعمق الفكرة.

- ليس من أفكارٍ، أنا فقط سأخبرك بما حدث معي.

- بل ستخبرينني فكرتك عمّا حدث. التفكير ماء العقل به ينمو

وبانقطاعه يجف ويضمحل.

- حسنًا، سأهدأ وسأخبرك بالأمر. لقد وجدت وظيفةً رائعةً جدًا تفوق كل أحلامي وخيالاتي.

ثم صمتت بعيونٍ برّاقةٍ ونظرةٍ متحفزةٍ، لعلها تستفز هدوء ضيفتها بالفضول.

رفعت الضيفة حاجبيها، وابتسمت بهدوءٍ، وقالت:

- أكملي.

- أشتهي أن أثير فيك غبار الفضول، لكنني لم أفلح! لعلني أستفز حماسك الآن بالخبر.

هزت رأسها نافيةً:

- قلت لك الحماس ضارٌّ بالفكرة.

- حسنًا، لقد اقترحت عليّ إدارة الجامعة أن أشتغل سكرتيرةً مُساعِدةً في القسم مقابل مبلغ بسيطٍ، شرط أن ألتزم بالعمل معهم بعد التخرج. لقد ضمنت الوظيفة!

ثم فتحت ذراعيها ولم تصبر أكثر، فعانقت ضيفتها عناقًا حارًّا.

ابتسمت الضيفة ابتسامةً عريضةً، وقد علت وجهها أمارات الرضا والسرور.

- أبارك لكِ ما أنتِ فيه، هذه قفزةٌ نوعيةٌ في مسيرتك، ولعلها فاتحة

خيرٍ لأمرٍ أكبر لك ولأخواتك.
- شكرًا لك على كل شيءٍ.
- الشكر لله.
ثم خرجت من عندها سعيدةً، ترافقها أختها. غير أنها حين رأت ذلك الشاب وفقاقيع الإعجاب تفيض من عينيه، أصابها بعض الخوف، حتى كادت تستدير عائدةً للخلف. إلا أنها أمسكت بيد أختها، ومضت سريعًا لوجهتها نحو جارتها العاقر.
خطفتها إلى الداخل بينما كانت تقرع الجرس للدخول، كانت متفاجئةً جدًا وتضحك بشدةٍ، كانت الجارة توزع قُبَلَها على الأختين، وتبكي. كانت الأخت الكبيرة تضحك بدهشةٍ، وتسأل عمّا يجري. أمّا الصغيرة فكانت تتلقى القُبَل بعجزٍ وارتباكٍ ونفورِ الصغارِ حين يقتحم الغرباء خدودهم. بعدما أنهتْ حفل القُبَل. شدّت جارتها لتجلس بجانبها، وتهيأت لتلقي على مسامعها الخبر.
- أنت مُلهَمَةٌ! كنت أنتظرك اليوم وأتمنى الاتصال بك لتحضري أو لأزورك.
- خيرًا؟ يبدو هذا يومٌ من أيام الله، فكل أخباره بشائرُ طيّباتٍ.
- أنا حاملٌ! تخيلي. (ثم غلبتها الدموع.)
بدأت تسرد لها القصة بالتفصيل، منذ شعرت بتغيرٍ مفاجئٍ في

جسدها، ظنّته سنّ اليأس، حتى تكرر الأمر بوعكاتٍ صحيةٍ متتاليةٍ، وذهابها للطبيب وإغمائها وذهول زوجها والفرحة العارمة لهما.

قامت بكلّ ما أمكنَ حاملاً من خفةٍ، إلى غرفة الصالون الشبيهة بالمخزن، وأحضرت صحنًا مليئًا بقطع الشوكولاتة وأفرغته في حقيبة جارتها وجيوب الفتاة الصغيرة.

خرجت الفتاتان ووقفت تودعهما عند الباب، و بكلّ ما أوتيت من طاقةٍ وبكلّ ما استحضرت من صيغٍ تقليديّةٍ ومبتكرةٍ للدعاء دعت لهما.

****

الأرض (٢):

ذهبت الفتاة لزيارة الجارة بعد عودتها من الحج، حملت هديةً وذهبت مع والدتها للزيارة.

استقبلتهما الجارة الحاجّة ببشرٍ وسكينةٍ.

- كيف حالك يا حاجة؟

- بخيرٍ، أهلاً بكما.

- تبدين أنحف!

- الحج مشقة لها لذتها، التي لا تضارع. رؤية الكعبة المشرفة تغسل الهموم وتزيح من النفس الآلام. هناك شعرت أنني لا أشتهي من الدنيا شيئًا إلا البقاء في ظلّ الكعبة.

قالت الأم:

- لعلك دعوت لنا يا حاجّة؟

- دعوت للجميع بزيارة بيت الله الحرام. دعوت لكما بالرضا والسعادة.

- ولنفسك؟ لو دعوت لنفسك بولدٍ صالحٍ!

- أتصدّقين أنني شعرت بأملٍ كبيرٍ في الحمل خلال الحج؟ شعرت بتوقد الأمل في داخلي بلا دعاءٍ.

صمتت قليلاً. سألتها الضيفتان:

- فيم أنت شاردة الفكر؟

- كأني رأيت هذا المشهد من قبل. أنني حاملٌ أو أتحدث عن الحمل.

- بشرى لك! لعله خيرٌ.

- ما كان من الله، حيّاه الله. رضينا بما يقدره الله.

خرجتا من عندها محملتان بهدايا الحج، سارتا في دربهما حينما اعترض الأم شابٌّ، على استحياءٍ قال:

- أريد أن أخطب ابنتك هذه، فهل يمكنني إحضار أمي لزيارتكم؟

تفاجأت الأم، والتفتت إلى ابنتها المصدومة.

قالت له الأم:

– هذه أوّل مرةٍ أسمع أو أرى فيها شابًّا جريئًا إلى هذا الحدّ! تريد أن تخطب؟ وترسل أهلك كذلك؟

ردّ عليها بارتباكٍ:

– لا أقصد أن أرسلهم للخطبة، بل للتعارف، وإن حصل توافق تأتون لزيارتنا وخطبتي من أمي. حاولت أن ألفت نظر ابنتك لكنها لا تبالي بي. ليس في الأمر حرامٌ. أليس كذلك؟

– لا حرامَ في ذلك، لكنك تصدمني بكلامك. أرسل أمك وسنرى.

ثم لحقت ابنتها التي التهمت الطريق فالتهمها الغياب.

****

الأرض (٣):

دخلت الأم الغرفة باندفاعٍ مفاجئٍ لم تعهده الابنة منها. كان نحلُ الكلام يزنّ على جانبي فمها، كان ذلك واضحًا في بريق عينيها وتهيؤ شفتيها للحديث، وهي تنتظر بفارغ صبرٍ أن تطلق له العنان، لشدة ما يسبب لها وخزًا، فللكلام إبرٌ حين نكتمه وهو على مرمى حرفٍ.

شدّت ظهرها، وأغلقت كتابها، وتهيأت لسماع الأخبار، وفي مساهمةٍ طيبّةٍ منها لإشعار أمها باهتمامها، سألتها عن الخبر، فانطلقت قائلة:

– خبران رائعان، بل ثلاثة أخبارٍ.

– هاتي ما عندك، ولو أنّ الأخبار لا يحكم عليها إلا بعد حين، فكم من خبرٍ حسبناه رائعًا وكانت عاقبته مؤلمةٌ! وكم من خبرٍ مؤلم حين نتريث وندعه يمضي ندرك كم كان مفيدًا ورائعًا ما جرى!

– دعيك من فلسفتك المتشائمة!

ابتسمت بضَعف ذاكرة الشفاه لشكل الابتسامة، وصمتت تستمع.

– جارتك، حاملٌ!

– كأني سمعت هذا الكلام، وعشت هذا الموقف من قبل! قلت حاملٌ؟ لعله خير. والخبر الثاني؟

– تلك الفتاة التي أرسلت تطلب نصحك...

– كيف عرفت؟ لم أخبر أحدًا بهذا!

– أنسيت أني كنت عند الجارة؟ وهي الوسيط بينكما؟

– تبًا!... (ثم صمت صوتها وعبرت عن غضبها بنفخ الهواء من منخريها بغضب مما أدّى إلى نحافةٍ مفاجئةٍ في جسدها الغازيّ.) كيف تجرؤ على فضح سرّ غيرها؟ لا يجوز أن...

قاطعتها الأم:

– لكنها أخبرت الجارة وطلبت منها أن توصل لك رسالةً، ولأنك لم تأتي معي فقد طلبت مني الجارة إيصال الرسالة لك.

هدأت الفتاة قليلاً، ثم أنصتت للأم وهي تردف:

- تلك الفتاة تبلغك تحياتها وتشكرك بعمقٍ لأنك منحتها الثقة والقوة والإشارة نحو الطريق، تقول لك إنّ أمورها بخيرٍ، والحال أفضل، وزوج أمها في طريقه للذوبان أمام صمودها وأخواتها. لقد خرج من بيتهم وتظن أن بدايةً جديدةً تنتظرها. تقول إنها حصلت على عملٍ جديدٍ، بسيطٍ لكنه شريفٌ.

- هذا خبرٌ جيّدٌ!

- إلى الخبر الأهم!

- الأهم؟!

- جاءك عريس من عائلةٍ محترمةٍ، وهو شابٌّ متدينٌ، ويريد رؤيتك وأمه خلال الأسبوع القادم.

انقبضت أوتارها الصوتية المشدودة إلى قلبها الذي تسارعت ضرباته. وصمتت ولم تُعَقّبْ.

****

الأرض (١):

- لماذا تلاحقني؟ (التفتت إلى الخلف وفرقعت في وجهه السؤال.)

- أنا... أنا... (كأنه يُسأل في يوم الحساب.)

- منذ أسابيع وأنت تلاحق طرف ثوبي، ماذا تريد؟

- أممكن أن تهدئي قليلاً؟

– هدأت! قل ما لديك وبلا مقدماتٍ.
– لستُ سيّء الطباع ولا النوايا. أعجبتِني وأردتُ أنْ أعرفكِ عن قربٍ، فلا مكانَ يمكنني الاقتراب فيه منك سوى طريقكِ الذي تعبرينَه، ولم أشأْ أنْ أقتحم حياتكِ قبل أن تعرفي وجهي. ولولا شدة خوفي من الصدود لحدثتك منذ زمنٍ.
– ثم؟
– الحقيقة... (عاد يتلعثم.)
– ها؟
– أنت تنظرين إليّ بطريقة تمتصّ طاقتي التي أحتاجها كاملةً للحديث معك.
– دافع عن قضيتك ولا تلتفت إلي.
بلع ريقه وقال:
– هل تعرفين أغنية فارس كرم «قولي لأبوكي أني قاصد بيتك هالليلة، هلي يريدوكي تبقي لَولْدن خليلة؟» ثم احمرّ وجهه وهو يقرأ وجهها.
كادت تنفجر ضاحكةً لولا إحساسها بضرورة احترام مشاعره، رغم طريقته الطفولية في التعبير. لكنها لم تمنع نفسها من أن تقول:
– ما دمت استعنت بغيرك لتعبر عن نفسك، فلمَ لا تقول: «خلق

لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها.»؟ لأنّ القبول والرفض مرتبط بالتَّقبُّل والسَّكَن.

على كل حال، أحتاج لموافقة أهلي عليك لأبدأ بالتفكير في أمرك.

- لكنك فتاةٌ ناضجةٌ، وقرارك شأنك.

- لست بالتي تدخل عائلتها فردًا لا يتقبلونه، هذا من النضج. ولست بالتي تتقبل من لا تعرف عنه شيئًا، وهذا من النضج.

- كيف تعرفينني ما لم تتعرفي عليّ؟

- هذا أمرٌ يبدأ من عند الأهل، فهم قادرون على السؤال عنك، ثم يأتي دوري بعد ذلك.

- شكرًا لردك.

- العفو!(رفعت كتفيها بلا مبالاةٍ، ومضت.)

مضت الأيام، وهي تفكر في أمر الشاب، وفي أمرها، تربط بين قلق أهلها وخوفهم غير المبرر عليها لدرجة التشديد، وحاجتها لكسر هذا الخوف إلى الأبد. كان الزواج حلاً مناسبًا بالنسبة لها.

فقبلت به خطيبًا لها. كانت الخطوبة مُعقّدة التفاصيل، متشابكة، كشخصيته تمامًا؛ شابٌ متدينٌ بالمعنى التقليديّ للدين، مكافحٌ، تركه أبوه صغيرًا، فرعى أختيْه منذ اشتدّ عوده، كان هذا مما راق لها فيه، وجعلها تحترمه. في الوقت نفسه كانت شديدة الانفتاح على

الحياة، شديدة الحب لمن يقسو عوده، ويحمل في دمه مصلاً ضد أوجاع الحياة، لكنّ خطيبها لم يكنْ كذلك، كان شديدَ التشاؤم، لدرجة العدوى. تشعر معه بانعدامِ الراحة، وقلةِ السكينة. سألته مرةً:

- أنت رجلٌ مكافحٌ، وأخواتك في حالٍ جيدةٍ، احمَدْ الله أن هيّأك لرعايتهن، أخرياتٌ أعرفهنّ احتجنَ إلى كسر ظهورهنّ لشدّة ما عانين، حتى كدنَ يفقدنَ أنوثة الأنثى وسط الرجال، لولا أن رعاهنّ الله.

- ولماذا أنا بالذات يجب أن أشقى؟ انظري إلى كثيرِ رجالٍ، لا يَكِدّون نصف كَدّي ويحصلون على ضعف ما أحصل عليه من المال وراحة البال.

- راحة البال أمرٌ بأيدينا نحن، أمّا المال فهو ليس أُسُّ السعادة الذي تقوم عليه معادلة الحياة المريحة.

- أرجوك! هذا الكلام النظريّ المثاليّ لا يُجدي؛ فحينما أعجز عن الزواج حتى اللحظة لأني لا أملك شراءَ أو استئجارَ بيتٍ، وبيتنا صغيرٌ لنشارك فيه أهلي، كيف أفعل؟ وبأيّ منظارٍ سأرى الحياة؟

- لكنني أساعدك، ومشقة الحياة لذةٌ لو عرفنا أنها ليست آخر الطريق. أقصد: خطواتنا بطيئةٌ لكنها ثابتةٌ وواثقةٌ. على الأقل

بداياتنا لم تكن إزالةَ عوائقَ، بل وجدنا الطريق مفتوحًا أمامنا.
- أريد أن أعيش حياتي، أنا سعيدٌ بتديّني لكن هل ترين الناس سعداء بالدين؟
- مالنا وللناس؟
- كل الناس تغشّ وتسرق وتؤذي غيرها.
- لا تكن مثلهم. هذا يكفيك لترتاح.
- أحيانًا أتمنى الموت لولا أُختَيّ.
- لا تقل هذا. لك رسالةٌ ستنجزها وسيثيبك الله على صبرك ويعوضك خيرًا، فلا تجزع ولا تعترض، كل ذلك لخيرٍ. ألا يمكن أن يكون هذا كله لحكمة...
قاطعها بغضبٍ:
- أين الحكمةً في أن يتخلى أبي عنا؟ أين الحكمة في أن أعمل كالحمار ولا أجد عائدًا لائقًا ومكافئًا؟ أين الحكمة في أن تتركني إيمان... (ثم صمت واجمًا.)
- من إيمان؟
-...
بدأت الشكوك تراودها في أنه لا يحبها، وأنه يستخدمها كمُسكِّنٍ ضدّ وجعٍ أصابته به أخرى.

كانت تلك جلسةً بدأت تثير شكوكها ومخاوفها.
حاولت الاتصال به لكنه كعادته حين يكتئب، يهجرها يومين أو ثلاثة، ولا يعود للظهور أو الحديث إلا حين تبادر هي بفعل شيءٍ يجعلها تبدو مُهَرِّجًا، ليبتسم ويرضى. هذه المرة قررت أن تتوقف عن ذلك، لترى كم سيغيب.
غاب ثلاثة أيام، كان هذا هو الوقت الأقصى كثقبٍ أسود يمتص اكتئابه، لكنه أتمّ أيامه لسبعةٍ. رأته بعدها صدفةً في محلٍّ حلوياتٍ يمازح شابًا آخر، ويجامل فتاةً تشتري الحلويات بما يشبه الغزل.
كانت ذاهبةً إلى السوق مع أختها، حين لمحته خلف الواجهة الزجاجية للمحل، فدخلته وسطَ زحام الأقدام، لتسمع ما قيل ويغلي الدم في رأسها، وتخرج بكماءَ اللسان ناطقة العين بالدموع.
لا شيءَ أصعبُ من أن يهديَك من أحببت عُبوسَه ويهدي غيرك ابتسامته ورقّة لسانه. كأنّك خلقت له حتى يفرغ فيك ألمه وحزنه وكآبته، ليصير أفضل حالاً مع غيرك.
خرجت تسأل نفسها: «ما عذره؟ ما عذره؟ الكآبة؟ هاهو يمازح الآخرين ويستمتع بوقته. لماذا خطبني ما دمت سببًا لتفجير حزنه وغضبه؟ ما عذره؟ سيقول لي: كنت كئيبًا ولا طاقة لي بالحياة؟ ها هو يعيشها! سيقول لي: كنت أجاملهم؟ أتطيق مجاملة الغريب

وتعجز عن طمأنة حالي؟ لا تجاملْني لكنْ أرسل لي الطمأنينة هديةً في رسالةٍ عابرةٍ. أشعرني أنك تتذكرني.»

قالت لنفسها بحزمٍ وقد بلغ بها الأسى أقصاه، كأنها تبرر لضميرها فكرةً تراودها فتدفعها فتراوغها بالعودة: «حسنًا! ما دام قد استطاع الاستغناء عني أسبوعًا، فهو قادرٌ على الاستغناء عني عمرًا، لا حاجة له بي ولا حاجة لي بمن يستغني عني ولا يشكّل وجودي أو غيابي عنده فارقًا.»

****

الأرض (٢):

- «تخيّروا لنطفكم فإنّ العِرق دسّاس!» هذا ردّي عليك. (ثم أعطته ظهرها تريد الذهاب.)

- ماذا رأيتِ مني؟ ماذا تعرفين عني لتحكمي؟

- لقد سأل أبي عنك ولم يعجبني ما سمعتُ.

- أعطيني فرصةً لأثبت محبّتي لك.

- لا يريحني أن توقفني في الطريق لتكلمني في أمرٍ كهذا. ولا يروق لي من أضاع عمره لهوًا، وتنازل عن واجبه كأخٍ وعصى أمه وأباه وترك بيته حينًا لما ساءت العلاقة. ماذا يضمنُ لي أنك لن تفعل بأسرتك كما فعلت بأهلك حين تضجّ أو تملّ مرةً؟

– أنا تائبٌ، ألا تُقبَل للتائب صحوةٌ بعد غفوةٍ؟

– إن كان لك توبةٌ فيجب أن تبدأ بأهلك. عليك أن تسعى إلى إنْ تصلح مِن ماضيك الذي يمكنك، قبل أنْ تمهِّد لمستقبلٍ جديدٍ ما دام ماضيك جزءٌ من وجودك. دعني أسألك: لماذا فكرت بالتوبة حين عرفتني ولم تفكر فيها قبل ذلك؟ ولماذا أردت أن تتوب على يديّ؟ وإن كان كل ذلك بنظرك جيدٌ وحقٌّ ويجب أن نقبله ونصدقه، فلماذا لا ترجع إلى بيتك وأمك وأختيك وتحاول إصلاح الأمر معهنّ وطلب رضاهنّ؟

– الأمر ليس كما تظنين، سأفعل، لا مانع لديّ، لكنني شعرت معك براحةٍ نفسيةٍ كبيرةٍ، شعرت أني ضائعٌ تائهٌ قبلكِ، وأنني أتعلم على يديكِ. ألا يكفيك أنني بحثت عن فتاةٍ مثلكِ لتدركي صدق نواياي؟ كان يمكنني البحث عن فتاةٍ لا تبالي بالدين أو الخُلُق لتشبهني كما كنتُ وترضى بي، كان يمكنني البحث عن جسدٍ فقط وسأجد من تهلّل لعَرضي.

– أنتَ تحيّرني. سأخبرك أمرًا: إن قبلتْ أختاك وأمك بعودتك فأنا مستعدةٌ للقبول بك. ما قولك؟

كان يبدو شديد الحيرة من عَرْضِها ذلك، شديد التردد، طويل الصمت والتفكير. لكنه قبل أخيرًا بعرضها، فتركته ومضت في

طريقها، وفي أعماقها ارتياحٌ مريبٌ نحوه.

****

الأرض (٣):

- لم تعد لي شهوةٌ في الرجال.

- القضية ليست شهوةً، ألا ترغبين بأن تصيري أمًا، يناديك صغيرك وتدللينه؟ الأمومة جميلة.

- جميلةٌ جدًا، لذا بعد قليلٍ سأذهب لزيارة جارتنا التي أنجبت ولدًا معاقًا!

- إذا حصل هذا معها، فهل هو قاعدةٌ؟

- وهل الإعاقات عقليةٌ أو جسديةٌ فقط؟ من الإعاقات النفسيّة والقلبيّة ما هو أخطر لأنّ العين لا تبصره، ولأنّ الناس تألفه. وعيُ الناس مخطوفٌ بغبار كسلِ الاتّباع، وعقلُ كثيرين مَشطوفٌ بماء الأمل الخدّاع.

- يا بنيتي، الحياة لا تقاس بهذا الشكل. أرجوك فكّري جيدًا في أمر الزواج، الشاب ممتازٌ ومكافحٌ، لقد وقف بجانب أهله حين هرب أبوه لأجل أخرى. هذا رجل يُعتَمد عليه، وهو لا ينقصه شيءٌ، وليس فيه ما يعاب عليه. ألم يقل الرسول: «إن جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلّا تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الأرض

وفسادٌ عظيم.»؟

– هذا الحديث لِمَن فضّل الجاه على العفاف، وابن المنصب على ابن النسب، وذي المال على ذي العقل. وليس الحديث لي، أنا رافضةُ الرجال. ثم إنني لا أشعر براحةٍ تجاهه، أشعر بريبةٍ من الموقف كله.

– ألن تتزوجي إذن؟ (قالت الأم بحسرةٍ وحزنٍ.)

– سأتزوج، أعدك. حين أجد رجلاً يرتاح له كلُّ كياني. الزواج يا أمي ليس ثوبًا نرميه في ختام المسرحية، الحب الذي لا يريحنا ويسعدنا ليس حبًا، بل هو شقاءٌ من نوعٍ آخر يحميه المجتمع ببطانةٍ سميكةٍ، ويصمّ أذنيه عن مخازيه بتصفيقٍ حادٍّ لمن انضمّ إلى قطيع المتزوجين، ولو نزعت الأقنعة لوجدت نصف المتزوجين تعساء لسوء الاختيار، ولتسرع القرار.

– بنيتي...

– أمي، أتعلمين؟ كأني أعرف ما ستقولينه؟ (ثم ضحكت بسعادةٍ في مشهدٍ نادرٍ، حتى إنها شعرت بتأنيب ضميرٍ للضحك، وكأنها تعتذر عن فرط الانتشاء.) ثم أردفت:

– كأني قلت هذا الكلام أو سمعته من قبل، هذا شعورٌ لذيذٌ! أشعر أنني مرتاحةٌ جدًا لقراري، أرجوك لا تضغطي عليّ بطلب الزواج.

هل تذهبين معي لزيارة جارتنا؟ فحالتها النفسية سيئة منذ خاب أملها وأنجبت الولد المعاق.

- لا بأس، سأحضر معك. (قالت ببأسٍ واستسلامٍ.)

* * * *

الأرض (١):

- كيف شعورك الآن؟

- أنا سعيدةٌ جدًا، رغم أنّ ابني معاقٌ. لكنني سعيدةٌ بعطيّة الله. لا تعرفين أين يكون الخير.

- مزيدٌ من الصبر؟ (وابتسمت.)

- لا نعرف من أيّ بابٍ ندخل الجنة. هذه روحٌ، ولا يجوز ردّ عطية الله، له الحق في الحياة.

- أَحْمَدُ الله أنك صابرة، آخرون لو رزقوا بالطفل بعد طول انتظارٍ وكان معاقًا يغضبون ويتعاملون مع الموقف وكأنّ الله يحاربهم.

- أعلم، بعضهم يكفرون. أنا أعلم أنّ الله لا يفعل ذلك إلا لخيرٍ.

- هناك مدرسةٌ للمعاقين، ستفيد ابنك كثيرًا، وأعرف من يعطي دورةً للتعامل معهم أطفالاً. سأسجلك فيها، سيفيدك ذلك كثيرًا.

- بارك الله فيك. سجليني وسأنتظم فيها.

- زوجك، كيف هو؟

- بدايةً شعر بصدمةٍ وخيبةٍ، كان يبكي ليلاً، لم أكلمه ولم أقتحم حزنه، لكنه الآن بدأ يتقبل الأمر، وينظر في وجه الطفل ويكلمه قائلاً: «أنا بابا.» ثم يبكي.

- كان الله في عونه.

- سألني مرة إن كان الولد يفهم ما يقوله له.

- وبماذا أجبت؟

- الولد أجاب!

- كيف؟!!

- قال له مرةً: «أنا بابا.» فابتسم الولد كأنّه يفهم الكلام. يومها بكى زوجي بشدةٍ، كاد يجنّ فرحًا، لو رأيت الأمل في عينيه لحظتها! أنا بكيت مثله.

- أسأل لكما الصبر والثواب.

- آمين. وأنتِ ما أخبار خطيبك؟ متى سنفرح بكما معًا؟ لا تتزوجي وأنا في الفراش، أريد أن أشاركك الفرحة وأراك عروسًا.

صمتت قليلا، ثم قالت:

- لعله يجب أن أخبرك، فأنت تعرفين كثيرًا من الناس وتسمعين كثيرًا من التجارب، لعلك تملكين لي نصيحةً ترشدني إلى الصواب.

- خيرًا؟ انتظري قليلاً، الولد يبكي، سأراه وأعود لك.

هزت رأسها موافقةً، وسرحت في خطيبها الذي غاب، ولمّا عاتبته انفجر فيها شوكًا من تهم وتجريح. اتهمها بأنها لا تراعي مشاعره، ولا تأبه له، ولا تساعده ليصير أفضل، ولا تدرك حقيقة وضعه.

سرحت في اسم الفتاة التي ناداها، أنه يفتقد إيمان! من هي إيمان التي خسرها؟ وهل يصير هذا حال المرء حين يفقد إيمانه؟

منذ متى قصّرت في حقه أو لم أهتم لأمره؟ أيحبني حقا؟ يقلقني ألا يحبني.

عادت الجارة، وسألتها:

- ها؟ ما قصة خطيبك؟

- لا يحبني! (استغربت من تسرعها في إطلاق هذا الحكم، كانت شديدة الضيق، وتَهرُب من استنتاجٍ كهذا، لكنها شديدة التردد ولا تملك دليلاً قاطعًا.)

- كيف عرفتِ؟

«هذا السؤال صعبٌ جدًا»، قالت لنفسها. وأجابت جارتها:

- يغضب مني بلا سبب، بل يخترع سببًا للغضب وبالتالي الغياب، يقول لي إنّه مكتئبٌ وأراه يمازح غيري، كما أنه ناداني مرة بـ «أيمان» فقدها سابقًا، وحين سألته عنها، اتهمني بالشك وضعف الشخصية وانعدام الثقة في النفس.

- كلُّ الرجال يغضبون بلا سببٍ.
- أحيانًا، ليس غضب أحدهم هو الذي يحزننا، إنما طريقته في التعبير عن غضبه. سهلٌ أن تتفهم الغضب، صعبٌ أن تتفهم التعبير القاسي عنه. تزول القضية ويبقى الأثر.
- هل تحبينه؟
- هل يحبني؟
- هل تشعرين بسعادةٍ وراحةٍ معه وبقربه؟
- هل تغير للأفضل معي؟ هل يشعر بعدم قدرته على الاستغناء عني؟
- هل تقولين هذا الكلام كتبريرٍ لرفضك له؟ ألا تشعرين أنك تفكرين في غيرك قبل التفكير في سعادتك؟ سألتك هل تحبينه؟ والجواب هو الذي يحدد كلّ شيءٍ، ليس مهمًا أن تسعديه أو يحبك، أو يتغير. أنا أسألك عنك أنت، عن مشاعرك، عن حبك، عن راحتك. ولا أسألك عن قيمته هو. في الحب، لا نحتاج لأفضل رجلٍ موجودٍ لنشعر بالحب، لكلٍّ منّا شخصٌ يناسبه، ولكلٍّ منّا شخصٌ لا يرتاح بقربه وإن كان أفضل الناس، لا تحتاجين لمبرراتٍ لرفض قربك منه. ألّا تشعري براحةٍ قربَه وسعادةٍ معه يكفي لأن تصرفيه من حياتك. لا تحتاجين لمبرراتٍ لكلّ ذلك.

أشرق وجهه ارتياحًا واستبشارًا، فقد انكشفت الغمامة.

وقفت ذاهلةً وظلت الجارة جالسةً، أدارت ظهرها وخرجت، مشت قليلاً ثم فطنت إلى أنّها لم تستأذن، ومثلُ جارتها جديرةٌ بالاستئذان، ومثلها خليقةٌ بأن تتحلى بذلك الذوق.

استدارت، فرأتها تراقبها مبتسمةً، هزّت رأسها خفيفًا، ففهمت أنّها تأذن لها، لقد فهمتها! حيّتها بابتسامةٍ خفيفةٍ وانحناءةٍ من الجفنين.

جميلٌ أن تجد لك من يحقن روحك بجرعةٍ من نورٍ، لتصير شفافًا كفايةً أمامه كَمَدِّ البصر في سهلٍ فيتأمل روحك، ثم ترى في عينيه مرآةً تعكس لك ما يراه فيك ولا تراه.

حين سألتْها أدركتْ كم كانت غافلةً! كانت ممزقةً بين ما تريده هي وما يجب عليها فعلُه، هي لا تريده لكنّها تبحث عن سببٍ منطقيٍّ للرفض، لم تدرك من قبلُ أنّ الرفض يكفيه الرغبة في هذه الحالات، شعورٌ بالارتباك وعدم الارتياح، فقدان السلام الداخليّ كان كافيًا لترفضه، في حين كانت تبحث عن مبرراتٍ وأعذارٍ ومواقفَ كافيةٍ لتقول له «لا»، لم تكن بحاجة لتشويهه لترفضه.

سؤال الجارة نبهها؛ لم تفكر لحظةً في معرفة رغبتها هي بعيدًا عن الآخرين وعن أيّ بعدٍ اجتماعيٍّ قد يحول بينها وبين ما تريد.

كانت تفكّر قبل حديث الجارة، فيه وفيهم، لم يخطر لها قط أنْ تسأل نفسها عمّا تتوق هي إليه، وتحبه هي، ويروق لها هي.

شعرت براحةٍ كبيرةٍ الآن، لمحت حمامةً تعبر السماء وهي تهبط الدرج فشعرت بالسلام الداخلي وتبسّمت روحها. فقد اتخذت قرارها النهائيّ بلا ترددٍ.

* * * *

الأرض (٢):

لا شيء يُذكر يمكن قوله عن أحداث الأرض هنا، فالاستسلام للواقع، والرضا تحت مسمّى الصبر، يجعل المرء خاملاً يتعامل بمنطق ردة الفعل. ٣يتحوّل الصبر إلى صبرٍ سلبيٍّ واتكاليةٍ مقيتةٍ. الصبر ليس أن تخدّر حواسّك تجاه الواقع، بل أن تقف لتغير الواقع بصبرٍ وثباتٍ حتى تصل إلى غاياتك، فالصبر سلاحك خلال سيرك، وليس شعورك حين تتلقى الصدمات. أن تتلقى الصدمات بصبرٍ يعني أن تقاوم فتقوم فتغير، لا أن تجلس مكانك متلقيًا صفعات الحياة ببلاهة الرضا وعجز الكسل عن التغيير تحت مسمى مخدر الصبر.

لم يخلقنا الله لنكون متلقين فقط، مع كل هذه الإمكانيات.

لذا، لا المرأة العاقر حملت، ولا الفتاة تزوجت، ولا حتى حاولت طرق باب الفرص. ولا المسكينة الصغيرة وجدت وظيفةً أجود، ولا الشاب تغير نحو الأفضل.

* * * *

الأرض (٣):

- لستُ مرتاحةً له يا أمي، لا أريد الزواج به. شيءٌ ما في قلبي يزداد قوةً يخبرني أنّه ليس الرجل المناسب لي. صوتٌ يهمس لي من بعيدٍ يقول لي: احذري، فنهاية طريقك معه عطشٌ وأسًى. رغم كل ما مدحته به، لست مرتاحةً له.

- هذا شأنك! لقد تعبت من الحديث معك. لقد يئست.

- هل يريحك أن أخبرك أني فعلاً صرت مستعدة للزواج؟ القابلية موجودة والإمكانية الآن متاحةٌ.لا أدري ما السبب لكنْ هناك إحساسٌ داخليٌّ أنني سأتزوج، لا يمكنني تكذيبه، لكنّ إحساسي غير مرتبطٍ بهذا الشخص. فقرّي عينًا ولا تجزعي لحالي.

- أسأل الله لك كل خير.

اقتحمت أختها الباب، تصرخ: «جارتنا جُنّت!»

طارت البنت فزعةً من سريرها، وعجزت الأم عن الثبات لشدة ما تثنّى جسدها الغازيّ. كانت الرجفةُ من صوتِ ابنتِها أشدَّ من رجفتها لما سمعته نفسه.

سألت الأخت:

- ماذا جرى؟

- إنها مكشوفة الشعر حاسرة الصدر، تتماهى بين مدّ الدموع وجزر

الصراخ، في الشارع، وتحمل طفلها في يدها، تدور به لتريه للناس!
- يا إلهي!
لبست ثيابها، نظرت إلى أمها فوجدتها تائهة العينين، رأسها كأنّه بومةٌ يدور ولا يستقر على شيءٍ.
هزّت أمها هزّةً خفيفةً لتقوم معها لمساعدة الجارة وضمّها في بيتها بدل هذا العصف الغريب في الشارع.
كانت الجارة تحمل طفلها في ملاءته البيضاء، ترفعه عاليًا، وتصرخ: «هذا ولدي المعاق الذي أنجبته بعد طول انتظارٍ، انظروا إليه كم هو جميلٌ وهو نائمٌ! كم أخفيته عن عيونكم! كم خبأته من ألسنتكم! ها هو طفلي المعاق. انظروا.»
اقتربت الفتاة من جارتها، حين رأتها، بقليلٍ من الوعي، هبطت على ركبتيْها، تحتضن طفلها إلى صدرها وتبكي. بكت بشدةٍ، حتى خافت الفتاة على الطفل من الاختناق.
سحبت خصلات شعرها برقةٍ عن وجهها، قالت لها، وهي تحاول الابتسام:
- أعطيني الولد، سيختنق لو ضممتِه بقوةٍ.
- يختنقُ؟ (ثم نظرتْ إليه.) لا، لن يختنق! (كانت نظراتُ عيونها بلهاءُ، فَسَرَتْ رعشةٌ خفيفةٌ في جسد الفتاة.)

- ما بكِ؟ (همستْ لها كأنّها تسأل نفسها.)
- ولدي! قَتَلْتُه. (قالتها وكأنها تطلق مفاجأةً سارةً للجميع.)
لم تُحِر الفتاة جوابًا، فتحت عينيها دهشةً و صدمةً و رعبًا، ثم اقتربت من الولد تلمسه بيديها.
كان جسدُه باردًا ووجهُه أزرقُ كزرقة السماء، وفمُه مفتوحٌ قليلاً. كان صامتًا جامدًا كصمت المحكوم بالإعدام.
- ماذا جرى؟
- قتلتُه.
- لا لم تفعلي. أنت فقط مصدومةٌ لموته. خبّريني ماذا جرى. تعالي إلى البيت، تعالي معي. (أشارت إلى أمّها لتساعدها في سحبِ السيدة الجارة إلى بيتها.)
حملت الطفل، وقامت الجارات المتفرجات بسحب الجارة، فيما مشت أخرياتٌ خلف أبطال الحكاية، على قدميْن من فضولٍ وخوفٍ، يقدِّمنْ رِجلاً ويؤخِّرن أخرى.
جلست في البيت، مدّت يديْها تطلب ابنها، فمنحتها إياه الفتاة والدموع تغلي في قلبها قبل فورانهما في عينيها.
- ماذا جرى؟ خبّرينا.
- قتلت ابني، خنقته بيدي. لم أحتمل. هو لا يعرفني، لم يعرفني

حين كلّمته، لم يميِّز أمّه، لم يبتسم لي. خِفْتُ من كلام الناس، خِفْتُ مِنْ تَحَمُّلِ بلاهته ووجعِ قلبي حين يكبر، فقتلته. قتلت ابني الذي انتظرته، أرأيتم من تتمنى ثم تقتل الأماني حين تتحقق؟

صارت النسوة يضربْنَ كفًّا بكفٍّ. وهي تضحك بهستيريا، ترفع ابنها في الهواء وترقّص جسده، كأنّه دميةٌ.

كان شاقًّا جدًا عليهنّ نزعه من يديها، حضر زوجُها هلِعًا، يسابق الأخبار السوداء التي تلاحقه. وقف عند الباب فزعًا حين رأى الأخبار السوداء في وجوه النساء تسبقه إلى بيته وتَسْخَرُ منه وسط الدموع والقلق.

هُرِعَ إليها، خطف الولد منها، تحسَّسه، ثم هبط على الأرض يبكي.

قام من مكانه ووجهُه يواجِهُ وجهَها:

- ماذا فعلتِ؟

كانتْ تنظرُ في عينيه ببلاهةٍ كأنّها لمْ تعرفْه، وتبتسم. لم تُجِبْه، أمارات الجنون على وجهها.

حمل طفله وخرج.

****

الأرض (١):

- وَلدي، وَلدي.

ثم قامت فزِعةً تبحث عنه، لَحِقتها الفتاةُ جارتُها، وقد انتقلت لها عدوى الفزع، فقلْبُ الأم بوصلةٌ لا تخطئ، ولا تبالغ في القلق.

لحقتها إلى غرفة النوم، فوجدتِ الصغيرَ يلهو بلعبةٍ مُعلّقةٍ في السرير، ويضحك ببلاهته المعهودة.

حملته الأم وتفقّدت كلّ ثَنْيةٍ في ثوبه، ثم تفحصت كلَّ خليةٍ في جسده، كأنّها أشعةٌ تخترق عظامه. لا شيء مقلقٌ! كلّ شيءٍ على خير ما يرام. أعادته إلى سريره، وجلست تلتقط أنفاسها وتستعيد توازنها، مسحت آثار العرق عن جبينها. نظرت إلى جارتها، التي كانت تحاول الابتسام.

- ما بكِ؟ لمَ كلّ هذا الفزع؟

- قلبي نَقَز، لا أدري ماذا جرى، رغم أنني أعرف أنّه في سريره، وسريره محميٌّ، لكنني توهمت لحظةً أنّ مكروهًا أصابه. وسواسٌ همسَ في قلبي أن ابني...

- سلامته.

- لا أدري سبب هذا الشعور، لكنه كان قويًّا، خِفْتُ للحظةٍ أن يكون ابني قد مات!

- لا قدّر الله. هذا فقط بسبب حرصك الكبير عليه يا غاليتي. لا تقلقي، ها هو بخيرٍ أمامك. رزقه الله طول العمر وبارك لك فيه.

- لعلني كثيرة الوهم، شديدة الحرص. (صمتت قليلاً تفكر، ثم قالت):
- أيكون خوفي مرتبطٌ بتحذيرٍ لي من المستقبل؟
- لا أظنُّ ذلك. المستقبل مرتبطٌ بالأحلام. الحاضر مرتبطٌ بحديثِ القلبِ المفاجئِ ووسوسةِ النفسِ الملحّةِ.
- إذن، ليس من شيءٍ أخاف عليه؟ (سألت بحيرةٍ.)
- لا تقلقي، لا شيءَ يستحق خوفك. لو كان حلمًا لقلتُ هذا تحذيرٌ. أتذكرين حينما حلمتُ بأنك ستحملين بولد؟ كان ذلك مرتبطٌ بالمستقبل. لا أجد تفسيرًا لخوفك، إلّا أنْ يكون، أمرٌ كاد يحدث ثمّ صرفه الله عنك بفضل الدعاء.

****

الأرض (١):

لا تدري هل انعكستْ أنوار البيت في وجوه الحاضرين فبدت أقمارًا، أم أنّ الأنوار تشاركُ الوجوه فرحتها فزادت سطوعًا.
أغلبُ الحضور كانت الفرحة تغمرهم، كأنّ حفلَ جائزةِ المليون قد طرق بابهم أخيرًا.
خطوبةٌ غيرُ متوقعةٍ، وسريعةٌ في الوقت نفسه.
كانت العروس في أبهى زينةٍ، وأتمِّ انشراحٍ، بجانبها خطيبها، يلتقطان

الصور، ويوزعان الفرحة في صُرَرٍ من الشوكولاتة على الحاضرين.
اقتربت منها جارتها تحمل طفلها ذي الثلاث سنوات، حملته بحنانٍ غامرٍ وبفرحٍ نظيفٍ، تريد أن تتصور معه. قالت الجارة:
- ألف مبارك، أسأل الله لك الذرية الصالحة، ولدًا خيرًا من ابني.
- وهل خيرٌ منه؟ يكفيني ولدٌ يغزو القلب مثله، لأكتفي ولأشعر أني في نعمةٍ عظيمةٍ. انظري كم يحبه كلّ مَن رآه.
- جبر الله خاطرك كما تجبرين خاطري، وترفعين هِمّتي.
- نِعْمَ الأم أنت، أتمنى أنْ أكون مثلكِ.
أقبلت الفتاة التي كانت طالبتَها يومًا وتساعدها دائمًا، تبارك لهما.
- ألف مبارك.
- بارك الله فيك.
ناولت الفتاة العروس طاقة وردٍ.
-لماذا أتعبتِ نفسكِ وتكلفتِ جهدكِ ومالكِ؟ يكفيني أن تحضري.
- وقفت بجانبي طويلاً في تعليمي وفي وظيفتي، هذا أقلُّ شكرٍ أقدّمه لك.
قبّلتْ خديْها وتصورتْ معها.
كانت سُحُبُ السعادة تتخلّلُها شموس الآمال تغمر العروسين.
نظرتْ إلى خطيبها بفرحٍ، منذ كلَّمته عرفتْ أنه هو زوجُ مستقبلها

ووالدُ أطفالها بلا أيّ شكٍ أو ارتيابٍ. كانت في كاملِ الارتياح، نظرتْ في السماء وهي تبتسم، لتشكرها ولتقول للنجوم سرًّا، اختَرقَ الآفاق ليصلَ إلى أكوانٍ موازيةٍ أخرى، لتشعر هي نفسها في الأكوان الأخرى أنّها على أهبةِ الاستعداد للزواج، والارتياحِ لقرارِ الموافقة على ذلك الذي طرق الباب. فرحٌ واحدٌ وارتياحٌ غيرُ منقوصٍ، وانجذابٌ نحو طريقٍ واحدٍ في أكوانٍ ثلاثةٍ، كان كافيًا لتدركَ تلك الروح الموزعة في تلك النفوس أنّ القرار صائبٌ تمامًا، لا شكّ فيه.

****

حديث السماء:

كانت الملائكُ تُراقبُ كلّ ما يجري في تلك الأكوان المتوازية بتعجبٍ شديدٍ وبدهشةٍ وبحيرةٍ بالغةٍ، بين إعجابِها بما يجري وذهولِها من تلك الفرص المُهْدَرَةِ على جبين الزمان الذي يمضي ولا يرحم أحدًا. صريرُ قلم اللوحِ المحفوظِ وهو يكتب الأحداث أوْدى بكلِّ ما بقي لها مِنْ قدرةٍ على الفهم. فهُرِعت الملائكة إلى خالقها تستفسر وتسعى لِفَهْمِ كلِّ ما يحدث، والحكمة الكامنة فيه كَدُرّةٍ مكنونةٍ لا يصل إليها إلا غواصٌ في نفوس الخلق ماهرٌ. وقفت تحت العرش تسأل خالقها:

– يا ربِّ، لقد رأينا وسمعنا ما أذِنتَ لنا به. ولكننا لم نفهم الإنسان بعدُ، سألناك أنْ تكشف لنا وجوه الحقائق. سبحانك لا ننكر من ذلك شيئًا، لكننا نرغب أنْ تُعلِّمنا لنفهم بني الإنسان أكثر.

– وأيُّ شيءٍ يحيركم؟

– يا ربِّ، في تلك الأكوان، أعطيت ابن الإنسان ثلاث فرصٍ في وقتٍ واحدٍ، فجعلت الروح موزعةً في ثلاث نفوسٍ متفرّقةٍ، فلماذا اختلفت مسيرة الروح في كلّ كونٍ؟

– لأنني وعدتُهم بفرصٍ كافيةٍ لأقيم عليهم الحجة، وليشهدوا على أنفسهم بما دافعوا به قبل هذه الحياة، في يوم الحساب الذي كان. منحتهم فرصًا متكافئةً، حسب العقد الذي بيننا، فمنهم من اجتهد للوصول، ومنهم من رضي مستسلمًا للعقد، وهو يظنّ أنّ ما اختاره هو الأفضل له، فلم يَسْعَ للتغيير، ومنهم من نسي فاستعجل، فضجّ فَتَاهَ، فسقط. ومنهم من شكّ في قدرتي وحِلْمي فأساء لنفسه ولغيره.

– يا ربِّ، كيف تقتل الأم طفلاً انتظرته واجتهدت في الدعاء له؟

– كتبتُ عليها أنّها لا تُنْجِبُ لأنّها في حياةٍ سابقةٍ لم تحسن حفظ نعمة الأمومة حين شاركت في قتل ابنتها القديسة، ولكنني وعدْتُها أنها لو رغبت في الولد فسوف أمنحها إياه إن هي اجتهدت في الدعاء، وكتبتُ عليها أنها لا تلد إلا ولدًا معاقًا اختار لنفسه الإعاقة

في العَقد بيننا لينجو هذه المرة ممّا كسبت يداه حين اغتصب الفتاة. لكنها لم تصبر، ظنت أني بخلت عليها برحمتي، وما دَرَتْ أنّ رحمتي هي عينُ ما كرهتْ. فكفرتْ بنعمتي، وشربتْ سُمَّ الاستعجال، فقتلتْ وليدها، للمرة الثانية.

– يا ربِّ، هذه السيدة قتلت ابن رَحِمِها مرّتيْن في حياتيْن.

– نعم، هذا ليعلم الإنسان أنْ لو رُدَّ لعاد لما نُهِيَ عنه، إنْ بقيَ على شرّه وضجيجه ولم يستمع لهمس الروح فيه.

– لكنّها في الكون الأول أحبّت الصبي ورَعَتْه.

– لأن الحياة كلها في الكون الأول اختلفت، منذ مسيرة النبي يوسف، وحتى آخر الزمان. قلبٌ سليمٌ واحدٌ ذو همةٍ يغيِّر حال أمةٍ. انظروا إلى جارتها القديسة التي ساندتها، لولاها لما نجت ولما فهمت ولما وصلت، ولولا فهمها لقصة النبي يوسف، لما استطاعت أن تصل إلى فهمٍ أعمق للكون وللوجود ولخالقها، ولأسرار الحياة.

– يا ربِّ، الفتاة في الكون الثاني لم تطلب الزواج، فكيف تزوجت؟

– قانون الانجذاب، وفيه أنّ الأمر لا يكتمل إلا بانضمام عقد الأرواح الموزعة في روحٍ موحّدةٍ تضجّ في الخلق كلّه بأمرٍ ما. لأنّ من الأمور أمورًا لا يدَ للإنسان في تغييرها كالميلاد والزواج

وساعة الأجل. فهذه أجعلها إذا توافقتِ الأرواح، وما إنْ تصلَ روحٌ في جسدٍ إليها، حتى تُمْنَح لكلّ الأرواح في كلّ الأكوان.

- يا ربِّ، وبأيِّ جسد؟ بأيّة نفسٍ سيُحاسَبون؟

- «لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بأحسنِ ما كانوا يعملون.[١٥]»

- يا ربِّ، امنحهم فرصةً أخرى.

- رُبَّما، في حياةٍ أخرى.

تمت بحمد الله

(١٥) النحل:٩٧.

فهرس المحتويات

تنبيه هام جدًا ٥

الإهـــــداء ٧

مقدمـــــة ٩

الفصل الأول – "القِدّيسَةُ" ١٣

الفصل الثاني – "خُطَّةُ الرَّبِّ" ٨٣

الفصل الثالث – «أكوانٌ مُتوازيةٌ» ١٣٥

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com